الدكتور عزت السيد أحمد

انهيار روما الحوار بين الحضارات

قراءة سياسية تاريخية

EBRU
EBRU YAZICISI
ANKARA
2016

انهيارُ وهم الحوار بين الحضارات

قراءة تاريخية سياسية

عزّت السيّد أحمد

انهيار وهم الحوار بين الحضارات

قراءة سياسية تاريخية

الكتاب : **انهيار وهم الحوار بَيْنَ الحضارات**

قراءة سياسية تاريخية

الكاتب: **الدكتور عزت السيد أحمد**

عدد الصفحات: ١٤٤ صفحة

قياس الصفحة: ب ٥ = ١٧ X ٢٤

الحقوق جميعها محفوظة

تمنع طباعة هذا الكتاب أو بعضَه بأيِّ

وسيلةٍ من وسائل الطِّباعةِ والنَّشر والإعلام

من دون موافقةٍ خطيَّة من المؤلِّف

EBRU YAZICISI
ANKARA
2016

الإهداء

إلى أُمَّتي

هل لكِ بين الأمم

منبر للسيف أو للقلم

مُقدِّمَة

من أين نبدأ وأين ننتهي؟

لسنا أمام مشكلةٍ عويصةٍ ولا معقَّدةٍ.

نحن أمام مشكلةٍ بسيطةٍ واضحةٍ في حقيقة الأمر.

نحن أمام حقيقةٍ واقعيَّةٍ تؤكِّدها كلُّ الحوادث والأحداث التاريخيَّة، ولٰكن تكذبها الأوهام والطُّموحات والأحلام.

لا شكَّ في أنَّ الحوار بَيْنَ الحضارات والأمم والشُّعوب حلمٌ وأملٌ وطموحٌ عند الكثير من البشر ولن نبالغ فنقول عند الجميع. هو خيال يداعب عقولهم جميعاً. ولٰكنَّ هٰذا الأمل والطموح يتكسر علىٰ صخرة الواقع منذ آلاف السِّنين إلىٰ الآن. والمحاكمات المنطقية والواقعية تؤكِّد أنَّ هٰذا الطموح وهٰذا الأمل سيظل يتكسَّر علىٰ صخور الواقع بقسوة صادمة، ومع ذٰلكَ سيظلُّ الإنسان ينشد هٰذا الأمل ويطمح إليه ويساعده الوهم في عدم الاقتناع بحقيقة أن هٰذا الحوار متعذِّر واقعيًّا لا منطقيًّا.

لنبدأ من غلاف الكتاب. مصادفةٌ قادت هٰذه اللوحة لتكون غلافاً للكتاب. لم أكن أتوقعها أن تكون غلافاً لهٰذا الكتاب علىٰ رغم أنَّها موجودةٌ عندي منذ زمن غير قريبٍ نسبيًّا. ولٰكنِّي فيما كنت أحضر الكتاب للنشر خطرت هٰذه اللوحة ببالي وكانت ملهمة لهٰذه الفكرة من المقدِّمة.

كلُّ طرفٍ يصوِّر الحقيقة من جانبه...

كلُّ طرفٍ يرىٰ نفسه المظلوم والهدف في علاقته مع الآخر...

كلُّ طرفٍ يرىٰ نفسه البريء المرتمي في حضن العدو الغادر...

كلُّ طرفٍ يرىٰ الآخر غادراً لا يريد إلا أن يقتله ويقضي عليه...

كلُّ طرف يرىٰ نفسه يريد الخير للآخر ببراءة والآخر يوجه له الطعنات...

هل الحقيقة ضائعة إلىٰ هٰذه الدَّرجة؟

لا بُدَّ أنَّ هناك نقاط ارتكاز، لا يمكن أن تكون الحقيقة مائعة أبداً. المشكلة مشكلة النَّاظر إلىٰ الحقيقة، وقد توجد استثناءات، اسمها استثناءات.

لنعد النَّظر في اللوحة من جديد.

في اللوحة غموضٌ ما. ألا يحتمل أن يكون مُطلِقَ السِّهام غير عارف من قبل أنَّهُ علىٰ خطأ وأدرك فاحتضن من كان مرمىٰ سهامه؟

احتمالٌ واردٌ، احتمال ليس أكثر، ذٰلكَ أنَّ هناك مؤشِّرات وقرائن تقود إلىٰ استكمال الحلقات المفقودة إن وجدت، قد تكون هناك حلقات مفقودة وقد لا تكون، لٰكن غالباً يجب أن تكون هناك مؤشرات تكمل الفراغات وتقود إلىٰ استكمال الحلقات المفقودة من الحقيقة الغامضة. أمَّا الحقيقة الواضحة فمسألة أُخْرَىٰ، ولٰكنَّ المصيبة انَّ الحقيقة الواضحة ذاته موضع جدالٍ غالباً أيضاً. فكيف الحال بالحقيقة التي يشوبها بعض الغموض؟

في لوحة الغلاف مثلاً، تبدو ملامح ندم علىٰ رأس مطلق السهام ولٰكنَّ العكس يبدو علىٰ يده اليسرى التي تشد تثبت القوس، ولا نعرف طبيعة يده اليمنى هل تمسك بالسَّهم أم لا، وإن كانت تمسكه فلماذا تمسكه؟

اللوحة معبرةٌ تعبيراً بليغاً عن حوار الحضارات ولا يعنيني ماذا أراد صاحبها. كل طرف يرىٰ نفسه البريء المظلوم المرتمي في حضن القاتل الغادر. ومع ذٰلكَ فإن الحقيقة ليست كذٰلكَ أبداً. هناك طرف قاتلٌ غادرٌ وطرفٌ بريءٌ. لن نبيِّن من هو ولا كيف ولا لماذا سنترك ذٰلكَ لصفحات الكتاب.

علىٰ أيِّ حالٍ، لا بُدَّ من التَّمييز بَيْنَ حوار الحضارات والحوار الحضاري، بَيْنَ حوار الثقافات والحوار الثَّقافي وحوار المثقفين. الخلط بَيْنَهما عمداً أو جهلاً يؤدِّي إلىٰ نتائج خاطئةٍ بالضَّرورة.

أجبنا علىٰ هٰذه الأسئلة بمعنى أو بآخر في أثناء هٰذا الكتاب. حوار الحضارات شيءٌ والحوار الحضاريُّ شيءٌ آخر، وبالمثل الحوار الثقافي وحوار الثقافات. موضوعنا هو حوار الحضارات لا الحوار الحضاري، حوار الثقافات لا الحوار الثقافي.

حوار الحضارات وحوار الثقافات شيء واحدٌ تقريباً، وفرق بَيْنَهما وبَيْنَ الحوار الحضاري والحوار الثقافي، وفرق بَيْنَ الحوار الحضاري والحوار الثَّقافي. الحوار الثَّقافي ببساطة الحوار الذي تكون الثَّقافة موضوعه. بَيْنَما الحوار الحضاري هو الحوار المتسم بالوعي الحضاري والأخلاق الحضارية والرقي الحضاري.

أمَّا حوار الحضارات فهو موضوع الكتاب بالمجمل والتَّفصيل، بيَّنا أن الحوار بَيْنَ الحضارات أو حوارات الحضارات لا يكون إلا عموديًّا أو شاقوليًّا ومن شبه الممتنع أن يكون أفقيًّا إلا بمعايير مختلَّة التَّوازن وغير قابلة للتَّوازن ولا التَّكافؤ بحالٍ من الأحوال، ولا نطيل هنا فالتفاصيل والأدلَّة ومناقشتها هي موضوع الكتاب جملة وتفصيلاً كما أشرت قبل قليل.

علىٰ أنَّ من الجدير بالذِّكر هنا وهو ما لم أعرض له تخصيصاً في فصول الكتاب وهمٌ يتلبسه الكثيرون وهو أنَّ الملتقيات الثَّقافيَّة بأنواعها المختلفة والكثيرة هي نوع من حوار الحضارات، ويرون أنَّ هٰذه الملتقيات؛ المؤتمرات أو الندوات أو المهرجانات أو ما شابهها، تساهم في تقريب الحضارات من بعضها، وتساهم في حوار الحضارات، وتفتح وتغلق وتمنح وتمنع وهلم جرًّا من بيع الشِّعارت هٰذا.

هٰذا كلُّه وهم خالصٌ لا أساس له من الحقيقة ولا الواقعية. هٰذه الملتقيات تغني ثقافات أفراد لا ثقافات مجتمعٍ أَو أمَّةٍ، وتعمق الصِّلات بَيْنَ الأفراد لا الأمم ولا المجتمعات. والمصيبة هنا هي أنَّ الأفراد أَو المثقفون الذين يؤمنون بالحوار لا ينتظرون دعوة أحدٍ لإقامة الحوار لأنَّهُم هم ذاتهم يقيمون الحوار حَتَّىٰ ولو لم يجدوا من يقيم حواراً معهم، وهناك الكثير من الأمثلة ذٰلكَ، **فروجيه جارودي** بحث وتابع ووصل إلىٰ ما وصل إليه، **ونعوم تشومسكي** تابع وحاور واقتنع وغير قناعات بما كان من طويل سيرته... ولا نتابع العدَّ فالعد طويل... طويل قليلاً أو كثيراً.

الوهم الثَّاني الذي يتلبس الكثيرين هو الخلط بَيْنَ الرَّغبة والواجب. تبلغ النَّرجسيَّة المبطَّنة عند كثير من النَّاس أو (المثقفين) أن يساوي بَيْنَ رغبته والواجب. نعم نرغب في الحوار بَيْنَ الحضارات، ونحب ذٰلكَ كثيراً وكثيراً جدًّا، ولٰكنَّ السُّؤال الذي لم يتجرأ أحد علىٰ طرحه هو: هل يجب فعلاً الحوار بَيْنَ الحضارات؟ وما النَّتيجة التي ستكون إذا تم هٰذا الحوار فعلاً؟

لن أجيب على هٰذا السُّؤال فالجواب مفروشٌ بَيْنَ صفحات الكتاب، ويحتاج إلىٰ إعمال الفكر قليلاً. لنطرح هٰذا السُّؤال علىٰ أنفسنا ونفكر في إجابة مقنعة.

الوهم الثَّالث الذي يعشش في العقول أيضاً هو الخلط بَيْنَ الممكن والواقع. نعم، حوار الحضارات ممكن عقلاً، ممكن منطقيًّا، ولٰكن هل يمكن أن يكون هٰذا الحوار واقعاً؟

لن أتابع التَّبسُّط في هٰذا الموضوع فهو أيضاً مفروش في فصول هٰذا الكتاب. ولن أقول هٰذا رأيي ولكم رأيكم، وإنَّمَا أقول هٰذه حقائق بالأدلة والبراهين، ولذٰلك أقول: اقتنع أو لا تقتنع فهٰذا شأنك. ولٰكن تذكر أنَّ خيارك يوجب نتائج فعليك أن تتحمل نتائج خياراتك.

علىٰ أيِّ حالٍ، أكرر ما ذكرته هنا وفي فصول الكتاب بمفردات مختلفة وعبارات متنوِّعة:

أنا لست ضدَّ الحوار مطلقاً، الآخر هو ضدَّ الحوار.

أنا لست ضدَّ احترام الرأي الآخر، ولٰكنَّ الآخر يريد أن نحترم رأيه وهو يرفض احترام رأينا.

أنا لست ضدَّ حوار الحضارات، ولٰكنَّ الحضارة التي تريد أن أحترمها يجب أن تحترمني.

وفي ختام هٰذه المقدمة أبيِّن أنَّ فصول هٰذا الكتاب كتبت ونشرت علىٰ فترات متباعدة. وهي علىٰ تباعدها الزمني ليست إلا مشروعاً متكاملاً بمضمونه وموضوعه وعنوانه استقرَّ في ذهني منذ سنين كثيرة. من نحو ثلاثين سنة وفي بالي أن أضع هٰذا الكتاب، وشاءت الظُّروف أن يكتب بهٰذه الطَّريقة التَّباعديَّة، ونظراً

لطول الزَّمن به وعدم التَّفرُّغ له مثل أي بحثٍ فقد ألغيت مشاريع في ذهني لفصول أُخْرَىٰ عزمت علىٰ كتابتها وبدأت بها بتقديم وتأطير ولٰكنِّي استقريت علىٰ هٰذه الفصول فقط ولم أكمل الفصول الأُخْرَىٰ. دعاني إلىٰ ذٰلكَ الانشغال وقلة الوقت من جهة، وأنَّ هٰذه الفصول تفي بالغرض وتوصل المراد كاملاً تقريباً. توصل المراد ولا توصله كلِّه، وإنما تكفي.

في هٰذا السِّياق فإنَّ فصول الكتاب وفقرات بعض فصوله نشرت في الأغلب بَيْنَ عام ١٩٩٩م وعام ٢٠١٠م حسب التَّواريخ المرقونة أدنى عنوان كلٍّ منها. وهي تاريخيَّة الحقد الغربي علىٰ الشَّرق، والشَّرق والغرب وآفاق الحوار، ووهم الاحترام المتبادل، وهستريا الغرب من عودة الخلافة الإسلاميَّة.

عزت السيد أحمد

تركيا ـ ٢٠١٦م

الفصل الأوّل

الشرق والغرب
في جدلية الحوار والصراع

هل يلتقي الشَّرْق والغَرْب[1]؟ بل دعونا نسأل: هل العلاقة بَيْنَ الشَّرْق الغَرْب محكومةٌ بالعداء أَو الصِّرَاع الحتميِّ؟.

من المؤكَّد أنَّنا لا نعدو الحقيقة ورُبَّما لا نعدو البداهة إذا وَسَمْنا هذا السُّؤال بأنَّه جدُّ مهمٍّ، ومهمٌّ جدًّا، وبأنَّه يطرح ذاته بإلحاحٍ على مفكِّري الشَّرْق/ الجنوب وعلى مفكِّري الغَرْب/ الشَّمال في الوقت ذاته. ومن البداهة بمكان أيضاً أنَّ تتنوَّع الإجابات وتختلف حتَّى ممن كانوا يعيشون في الموقع ذاته. وليس من الغلواء بمكانٍ أبداً القول إنَّ الآراء جميعها تهمنا، وينبغي أن تكون مأخوذةً بعين حسباننا إذا ما أردنا أن نفهم الآخر فهماً موضوعيًّا، وأن نحسن في الوقت ذاته تعاملنا مع الآخر بما يخدم مصالحنا ويعززها.

ثَمَّةَ في هٰذا السِّياق أمرٌ حريٌّ بالتَّنويه به هنا، بل ليس ثَمَّةَ من خطأٍ ولا غلوٍّ إذا قلنا إنَّهُ من باب ما لا يجوز تجاوزه، وهو أنَّ نفراً غير قليلٍ من مفكِّرينا قد انجرف في سيل دعوى باطلةٍ، وإن كانت حقًّا فقد أريد بها الباطل، تذهب إلى أنَّنا نعتقد واهمين بتآمر الغَرْب علينا لمنعنا من أيِّ وحدةٍ أو تقاربٍ أو تقدُّمٍ أو ازدهارٍ، وأنَّ هذا من باب تعليق الأخطاء على شمَّاعة الآخر.

وهنا نجدنا مدعوُّين للتَّساؤل بجديَّةٍ ومسؤوليَّة: هل نبالغ حقًّا إذا عددنا الغَرْب عدوًّا لنا ؟ وإذا كان كذٰلكَ فبأيِّ معنًى يمكن أن نفهم هٰذه

١ . قُدِّم هٰذا البحث في مؤتمر: علاقتنا مع الغرب من منظور الدراسات الإنسانية . جامعة اليرموك . إربد/ الأردن في الأسبوع الأول من شهر تشرين الثاني عام ٢٠٠٧م.

العداوة؟ ولماذا نسميها عداوةً؟ وهل يمكن أن تحمل أَو تحتمل صفاتٍ غير هٰذه الصِّفة؟

الصِّرَاع والتكامل

في ظنِّي، واستناداً إلىٰ حركة التَّاريخ، وطبيعة العلاقات بَيْنَ الشُّعوب والحضارات، ليس في ذلك أيُّ مبالغةٍ أو تطرُّفٍ، فليس يشترط للعداوة احتلال أرضٍ أو انتهاك عرضٍ أو نهب خيرات... وإن كان ذٰلكَ جزءاً مفصليًّا من مضمون العلاقة ومسوِّغ وجودها، وكل ذٰلكَ، علىٰ أيِّ حالٍ، متحقِّقٌ في علاقتنا مع الغَرْب. وإنَّما الأصل في هٰذه العداوة هو العلاقة بَيْنَ الأمم القائمة علىٰ مبدأ الصِّرَاع لا من أجل محض البقاء، وإنَّما من أجل البقاء علىٰ القمَّة أو من أجل الوصول إليها. بمعنى أنَّ هٰذا الصِّرَاع أو العداء، الذي يحكم العلاقة بَيْنَ الشَّرْق والغَرْب علىٰ نحوٍ بدا عَبْرَ التَّاريخ علىٰ أنَّهُ حتميٌّ، ليس نابعاً من محض التَّقاطب أو التَّقابل بَيْنَ الشَّرْق ـ الغَرْب أو الشَّمال ـ الجنوب، وإنَّما هو مرتبطٌ بطبيعة العلاقة القائمة بَيْنَ القويِّ والضَّعيف، بَيْنَ الأمَّة القويَّة والأمَّة الضَّعيفة، الأمَّة المتحضِّرة والأمَّة المتخلِّفة، هٰذه العلاقة الَّتي تحثُّ الضَّعيف علىٰ البحث عن مكانٍ له يحقِّق من خلاله مصالحه، وتتطلب من القويِّ وتفرض عليه أن يحافظ علىٰ قوَّته ويعزِّزها مهما كلَّفه ذٰلكَ من ثمنٍ، ومهما كانت الوسائل المتَّبعة، لأنَّ سماحه للآخر بالنُّهوض والمنافسة يعني خسارته الكثير من مواقعه ورُبَّما فقدانه مكانته.

علىٰ أنَّ ما يتطلب منَّا التَّوضيح بإلحاحٍ هنا أمران:

أولهما أنَّ هٰذه العلاقة الصِّرَاعيَّة/ العِدائيَّة، وإن بدا تاريخيًّا أنَّهَا بَيْنَ الشَّرْق الغَرْب، أو الشِّمال والجنوب، فإنَّها لم تكن كذٰلكَ دائماً فقد كانت بَيْنَ

الشَّرْق/ الشَّرْق كما حدث في حضارات الشَّرْق القديم السَّابقة علىٰ ظهور كلٍّ من الإسلام والمسيحيَّة، وكانت بَيْنَ الغَرْب/ الغَرْب كما حدث في أوروبا إبَّان عصر النَّهضة ونشوء الاستعمار علىٰ أفكار الرَّأسمالية التِّجاريَّة ووقع تنظيراتها في مفهوم الثَّروة وأهميَّتها وضرورتها وكيفيَّة الحصول عليها وحمايتها...

وثانيهما أنَّ هٰذه العلاقة الصِّرَاعيَّة/ العدائيَّة ليست محصورةً بَيْنَ القوي والضَّعيف، بَيْنَ الأمَّة القويَّة والأمَّة الضَّعيفة وحسب وإنَّما هي قائمةٌ بالحدَّة ذاتها، وإن تباينت الآليَّات والغايات، بَيْنَ القِوَى المتنافسة أو المتكافئة؛ قوَّةً أو ضعفاً، كما كان سائداً في مرحلة الاستقطاب الثُّنائي بَيْنَ الولايات المتَّحدة والاتِّحاد السُّوفيتي، أو فرنسا وبريطانيا فيما قبل، أَو بَيْنَ الإمبراطوريتين الرُّومانيَّة والفارسيَّة في العصر القديم. وغالباً ما كان يمازج هٰذا الصِّرَاع الاستقطابي بَيْنَ الطَّرفين المتنازعين اتفاقٌ جوهريٌّ أو عرضيٌّ بَيْنَهما، علىٰ الرَّغْمِ مما هم عليه من حالة صراعٍ، علىٰ تقليم أظافر الطَّامحين إلىٰ النُّزول معهما إلىٰ ميدان المنافسة والتَّحدِّي أَو الصِّرَاع. ومثل هٰذا ما وجدناه أَو استكشفناه من العلاقات بَيْنَ القوى الثُّنائيَّة الَّتي سبق ذكرها قبل قليل؛ الفرس والروم، الإنجليز والفرنسيين، الأمريكان والسوفييت...

وبهٰذا المعنى صار من الممكن القول إنَّ هذا الصِّرَاع حتميٌّ لا مفرَّ منه، ولا محيد عنه، وكلُّ من يقول بعكس ذٰلكَ أو يعتقد بضدِّه فهو مخطئٌ، علىٰ الأقلِّ في ظنِّنا. ذٰلكَ أنَّ هٰذه المسألة شبه مسلَّمة، أي إنَّ برهانها فيها، ويضاف إلىٰ ذٰلكَ أنَّ تاريخ البشريَّة كلُّه يؤكِّد هٰذه الحقيقة، بل إنَّنا إذا غضضنا الطَّرف عن كلِّ ما مضى فإنَّ الواقع الرَّاهن وحده كفيل بدفعنا للتَّسليم بهٰذه الحقيقة. ولذٰلك نجدنا ننظر بعين الرَّأفة والشَّفقة لحال لجنة إدارة شؤون المجتمع العالميِّ

عندما تصرخ بأعلىٰ صوتها قائلةً في كتابها جيران في عالمٍ واحدٍ: «ليس هناك بديلٌ للعمل معاً واستخدام القدرة الجماعيَّة لخلق عالمٍ أفضل»[٢]. فهٰذه نظرةٌ مفعمةٌ بالإنسانيَّة الفائقة لحدود الإنسانيَّة، إنَّها إنسانيَّة أكثر من إنسانيَّة علىٰ حدِّ تعبير **فردريك نيتشه** فيلسوف إرادة القوَّة والإنسان الخارق (السوبرمان)... بل إنَّها إنسانيَّة ملائكيَّة، لا ترى من الإنسان إلاَّ وجهه الملائكي الأمثل، المجاوز في رقَّته وشفافيَّته... وليس الإنسان كذٰلكَ أبداً، ولا يمكن أن يكون... لأنَّهُ إن استطاع أن يكون كذٰلكَ فلن يكون إنساناً... سيكون ملاكاً بكلِّ تأكيد.

من المؤكَّد أنَّنا إذ نقول ذٰلكَ فإنَّنا لا نعني أبداً أنَّنا ضدَّ التَّعاون الإنسانيِّ، ولا ضدَّ تشارك الأمم والشُّعوب وتكاملها... وأرجو ألا يفهم ذٰلكَ من كلامي أبداً... ولٰكنَّ هٰذا الطُّموح الذي كحَّل عيون الفلاسفة متعذِّرٌ من النَّاحية الواقعيَّة، إنَّهُ محض أمنيةٍ. أمَّا التَّكامل الواقعيُّ والموجود، والذي يكثر وروده في كتابات المفكِّرين، فهو من نوعٍ آخر، وينشعب في حقيقته إلىٰ نوعين؛ **أولهما** تكاملٌ تراكميٌّ عموديٌّ **وثانيهما** تكاملٌ أخطبوطيٌّ أفقيٌّ.

أمَّا التَّكامل التَّراكميُّ العموديُّ فهو تكامل الحضارات المتعاقبة ورفدها بعضها بعضاً بفعل التَّلاقح الحتميِّ للحضارات والشُّعوب، كما حدث في وراثة اليونان لحضارات الشَّرْق القديم، ووراثة الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة للحضارة اليونانيَّة والحضارات السَّابقة، ووراثة الحضارة الأوروبيَّة للحضارة العربيَّة الإسلاميَّة...

---

٢ . لجنة «إدارة شؤون المجتمع الدُّولي»: **جيران في عالم واحد** . ترجمة؛ مجموعة من المترجمين . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ (سلسلة عالم المعرفة) . الكويت . العدد ٢٠١ . ١٩٩٥م . ص٣٠.

وأمَّا التَّكامل الأفقيُّ فهو التَّكامل المتزامن بَيْنَ الأمم والشعوب، وهو إمَّا أن يكون تكاملاً قسريًّا يفرض القويُّ فيه إيقاعه وحاجاته علىٰ الضَّعيف من أجل أن يتكامل بنيانه ويزداد منعةً كما الحال بَيْنَ الغَرْب والشَّرْق أو بَيْنَ الشَّمال والجنوب، وبهٰذا المعنى «يقرع **توفلر** الجرس لكي يحذِّرَ هٰؤلاء الَّذين يقفون في وجه الموجة الثَّالثة بأَنَّ دوَّأمَّة التَّغيُّر سوف تجرفهم، وأَنَّ هؤلاء الَّذين لم يركبوا الموجة سوف يظلُّون متخلِّفين في مزبلة التَّاريخ»[٣]. أو أنَّه تكامل بَيْنَ حضارتين قويَّتين متزامنتين، وهنا تلعب المصالح والقوَّة الدَّور الحاسم في تحديد طبيعة هٰذا التَّكامل كما هو الأمر بَيْنَ الولايات المتحدة وأوروبا واليابان مثلاً، وبهٰذا المعنى « يجادل **كينشي أُوماي** في أَنَّ العولمة ليست فقط من أَجل تعاون أَكبر، ولٰكنَّ أَيَّ شركة ذات سوقٍ محليَّةٍ قويَّةٍ وتصديرٍ قويٍّ يمكن أَن تتابع عمليَّة العولمة».

إنَّ موقع العالم العربيَّ والإسلاميَّ أي موقع الشَّرْق من الدُّول المتقدِّمة أي الغَرْب، موقعٌ محبطٌ، ولكنَّه موقعٌ طبيعيٌّ في إطار راهنيَّته التَّاريخيَّة. ولذلك نحن لا نعتب علىٰ الغَرْب في اختراقاته وانتهاكاته حقوقنا وخصوصيَّاتنا، ولٰكنَّنا نعتب علىٰ أنفسنا المتقاعسة، المتهالكة في فتح الثَّغرات أمام الغَرْب ليقوم هو باختراق غيرها، ولتتسع من ثمَّ جراحنا أكثر وتتكثر. وبهذا المعنى يمكننا أن نفهم قول **علي حرب**: «إنَّ أزمة الهويَّة العربيَّة؛ المجتمعيَّة والثَّقافيَّة، لا تكمن في محاولات اختراقها من الخارج، بقدر ما تكمن بالذَّات لدى حماتها والمدافعين عنها من

٣ . إلفان توفلر: **بناء حضارة جديدة؛ سياسة الموجة الثالثة** . ترجمة حافظ الجمالي . اتحاد الكتاب العرب . دمشق.

النُّخب وأصحاب المشاريع الأيديولوجيَّة، العاجزين عن ممارسة الاختراق والتَّوسُّع، عَبْرَ خلق الحقائق وإنتاج الوقائع»[٤]. ولٰكنَّنا نأخذ عليه رقَّته ولطفه في التَّعامل مع هؤلاء الذي أعملوا معاول الهدم والتَّخريب في بنى العالمين العربيِّ والإسلاميِّ جميعها: الاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة والفكريَّة ... عن قصدٍ وعن غير قصدٍ... متذرِّعين لذٰلكَ بدعاوى مختلفةٍ برَّاقةٍ في صورها ومظاهرها وخبيثةٍ خطيرةٍ في مضامينها وتطبيقاتها... فهل يشفع أَو يغفر لهم حسن نواياهم، مع افتراض صدق حسن النَّوايا، إن كانت النَّتائج كارثيَّةً على أمَّتهم؟!

لٰهذا يفتح أمامنا عدَّة آفاق لمحاور الكلام في لٰهذا الموضوع، ستكون المحاور التي يفترض الكلام فيها كثيرة، ورُبَّما تحتمل أكثر من وجهٍ من القراءة أَو التَّرتيب والتَّبويب، أي رُبَّما يختلف النَّاظرون أَو الباحثون في تقدير المحاور التي يمكن من خلالها تناول مشكلة العلاقة الصِّرَاعيَّة بَيْنَ الشَّرْق والغَرْب، وآليَّات الحوار الحضاريِّ بمختلف دلالات الحوار بَيْنَ الحضارات والشُّعوب. من الصَّعب أن نقف عند كلِّ الاحتمالات والتَّوقُّعات ووجهات النَّظر في ذٰلكَ، ولا نهدف إلىٰ ذٰلكَ كلِّه أصلاً. سنقف عند الأساس الذي يبني عليه الأقوياء ذرائعهم في العدوان علىٰ الضُّعفاء، ووعي الصِّرَاع والتَّخطيط له.

مزاعم الثَّقافة الخارقة

نقطة الانطلاق الأساسيَّة التي تقوم عليها علاقة القويِّ مع الضَّعيف، علاقة الأمَّة القويَّة مع الأمم الضَّعيفة، ومنها تستمدُّ مسوِّغات السَّيطرة عليها، وتدمير قيمها وثقافتها، وفرض إيقاعاتها علىٰ

٤ . علي حرب: **صدمة العولمة في خطاب النَّخبة**. جريدة **السَّفير**. العدد ٨٠١٢. السَّبت ٦ حزيران ١٩٩٨م.

غيرها، هي إيمان الدَّولة أَو الأمَّة القويَّة، خاصَّة الأمم التي تكون في سدَّة الحضارة والقوَّة، هي أنَّ عقيدتها وثقافتها وقيمها هي الصَّحيحة، وقيم الآخرين وعاداتهم وثقافاتهم وقيمهم هي الخاطئة والبعيدة عن الصَّواب. وهٰذا ما يمكن أن يندرج تحت عنوان مزاعم الثَّقافة الخارقة. وانطلاقاً من هٰذه القناعة كانت الفتوحات عَبْرَ التَّاريخ، ما من أمَّة غزت غيرها من الأمم واحتلت أرضها إلا وَسَمَتْ ذلك فتحاً، تحريراً، حماية، وصاية... وكلها مفاهيم تدل علىٰ الوعي الكبير للفاتح والجهل المدقع للمفتوح.

الغَرْب ليس الولايات المتَّحدة وحدها، ولٰكنَّ الولايات المتحدة اليوم هي الممثل الشَّرعي الأول والنَّاطق باسم الغَرْب، والمنفِّذ لرغباته وعقائده ومتطلباته. وبالنَّظر إلىٰ الواقع العالميِّ الرَّاهن، وموقع الولايات المتَّحدة الأَمرِيكيَّة منه وفيه علىٰ مختلف الأصعدة والمستويات، وخاصَّةً العسكرية منها ثمَّ الاقتصاديَّة، من دون نسيان عنصر العُنجهيَّة الأَمرِيكيَّة علىٰ وجه الخصوص، ليس من المستغرب أبداً أن يكون الأمريكيُّون هم الأكثر (تبشيراً . تهويلاً . تهديداً) بسيادة عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم... علىٰ العالم، وبمعنى أكثر شمولاً سيادة نموذجهم الحضاريِّ؛ الثَّقافيِّ والأخلاقيِّ والاجتماعيِّ والاقتصادي والسِّياسيِّ والتَّقانيِّ... ومن كوكبة المروِّجين لذلك رجلٌ طلع علينا حديثاً هو: **ديفيد روثكوبف** ــ David Rothkopf [٥] ــ الذي كتب مقالاً صارخاً في مديح الإمبرياليَّة الثَّقافيَّة، واستبسل فيه في التَّرويج للثَّقافة الأَمرِيكيَّة وتمجيدها كي تحلو في عيون

٥ . **دافيد روثكوبف**: أستاذ العلاقات الدُّوليَّة في جامعة كولومبيا، الذي شغل منصباً مهمًّا في وزارة الخارجيَّة الأمريكيَّة إبَّان الفترة الأولى لإدارة **كلينتون**.

الأمـريكيين وغـيرهم مـن أمـم الأرض. فهـو يفـترضُ أوَّلاً أنَّـه «مـن المحـتَّمِ أن تقـودَ الولايـات المتَّحـدة التَّحـوُّل؛ فهـي الأمَّـة الأساسـيَّة في إدارة الشُّـؤون الكونيَّـة، والمنـتج الرَّئيسـي لمنتجـات [المعلوماتيَّـة وخـدماتها] في السَّـنوات الأولى لعصر المعلومات»[٦]، وهـو يبـني ذٰلـكَ علىٰ مـا يدَّعيـه ويزعمـه لقومـه مـن خصـائص وصـفات تؤهِّلهـا لتبـوء هـذا الـدَّور، وفي ذٰلـكَ يقـول: «إنَّ الثَّقافـة الأَمريكيَّـة تختلـف جوهريًّـا عـن الثَّقافـات [الـتي هـي بنـات بيئاتهـا] في العديـد مـن المجتمعـات الأُخْـرَىٰ. فالثَّقافـة الأَمريكيَّـة هـي مـزيجٌ مـن المؤثِّرات والمناهج من مختلف أنحاء العالم. وقد انصهرت . عن وعي في حـالاتٍ عديـدةٍ ـ في وسـط اجتمـاعيٍّ يسـمح بازدهـار الحرِّيَّـات الشَّخصـيَّة والثَّقافـات. وإذ يـدرك الأمريكيـون ذٰلـكَ، فـإنَّهم يجـب ألاَّ يخجلـوا مـن القيـام بمـا هـو في مصـلحتهم الاقتصـاديَّة والسِّياسـيَّة والأمنيَّـة . ومـن ثَمَّ بمـا هـو في مصـلحة العـالم ككـل. ويتعـيَّن علـىٰ الولايـات المتَّحـدة ألاَّ تـتردَّد في الـتَّرويج لقيمها. وفي سعيهم لأن يكونوا مهذَّبَيْنَ أو سياسيين»[٧].

وعلـىٰ الـرُّغم مـن كـلِّ الممارسـات الأَمريكيَّـة البشـعة وازدواجيتهـا وعنجهيَّتها وعدوانيتها التي لم يسجِّل التَّاريخ مثلها... نجده يصور الأمريكيين وكأنَّهم على درجةٍ من التَّواضع والحياء حَتَّىٰ يأكل القطُّ عشاءهم وهم ينظرون إليه بمنتهى الوداعة والخجل، يقول: «يجب على الأمريكيين ألاَّ ينكروا حقيقة أنَّه بَيْنَ كلِّ الأمم التي عرفها تاريخ العالم، فإنَّ أُمَّتهم هي الأكثر عدلاً، والأكثر

٦ ـ دافيد روثكوف: **في مديح الإمبرياليَّة الثقافيَّة** . ترجمة؛ أحمد خضر . ضمن مجلة؛ الثَّقافة العالمية . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت . العدد ٨٥ . ١٩٩٧م ـ ص ٢٩.

٧ . م.س . ص ٣٥ . ٣٦.

تسامحاً، والأكثر حرصاً على إعادة [تقويم] الذَّات وتحسينها، وهي النَّموذج الأفضل للمستقبل»[٨]. والحقُّ أنَّ هذا الخطاب الموجَّه إلى الأمريكيين ظاهريًّا إنَّما هو تسويق مفضوحٌ للسِّياسة والثَّقافة الأمريكيتين.

ويعزِّز **روثكوبف** هذا التَّسويق بضرب من الإيحاء النَّفسي عندما يحاول إظهار أنَّ الولايات المتَّحدة لا تفعل شيئاً من أجل تعزيز هيمنتها وإنَّما الظُّروف التي تخدمها كونها هي الرَّائدة في كلِّ المجالات ولذلك من مصلحتها «أن تشجِّع تطوير عالم يتمُّ فيه تجاوز حدود الصُّدوع التي تفصل العالم عَبْرَ المصالح المشتركة. ومن المصلحة الاقتصاديَّة السِّياسيَّة للولايات المتَّحدة أنَّ العالم إذا كان يتحرَّك باتِّجاه لغةٍ مشتركةٍ، فإنَّ هذه اللغة ستكون هي الإنجليزيَّة، وأنَّ العالم إذا كان يتحرَّك باتِّجاه معايير مشتركة في مجالات الاتِّصالات ـ Telecommunications والأمان ـ Safety والنَّوعيَّة ـ Quality فستكون هذه المعايير معايير أَمريكيَّة، وأنَّ العالم إذا كان سيصبح مترابطاً من خلال الإذاعة والتِّلفزيون والموسيقى فإنَّ البرامج ستكون أَمريكيَّةً، وإذا كان يجري تطوير قيم مشتركة فإنَّها ستكون قيماً يرتاح لها الأمريكيُّون»[٩].

وحرصاً من **روثكوبف** على حسن سير أمور البشر على الأرض، كما يبدي سياق الكلام، فإنَّه يرى أنَّه الهدف المحوريَّ بالنِّسبة للولايات المتَّحدة فيما يتعلَّق بالسِّياسة الخارجيَّة على وجه الخصوص، في عصر المعلومات هذا، «لا بُدَّ وأن يتمثَّل في تحقيق النَّصر في معركة تدفُّق المعلومات في العالم، والهيمنة على موجات الأثير، تماماً كما كانت

٨ . م.س. ص ٣٦.

٩ . م.س. ص ٣٢.

بريطانيا العظمى تهيمن يوماً على البحار»[١٠]. ظنَّا منه أنَّ تدفُّق المعلومات يصنع المعجزات، فيجعل العصا ثعباناً، والحجر ذهباً. وإن كنَّا لا نختلف معه من جهة المبدأ؛ مبدأ خطورة تدفق المعلومات وأهمِّيَّة الهيمنة الإعلاميَّة.

ولذلك نجده يحاول تعزيز أهمِّيَّة دعواه في ضرورة الهيمنة الإعلاميَّة وخطورة الغزو الثَّقافي استناداً إلىٰ أنَّ أقمار البثِّ التلفزيوني الاصطناعيَّة تمكِّنُ النَّاس في أقطاب الأرض «من التَّعرُّف بانتظام من المحفِّزات الثَّقافيَّة، فالمشاهدون الرُّوس يتعلَّقون بالتَّمثيليَّات التِّلفزيونيَّة الأَمريكيَّة، وقادة الشَّرْق الأوسط [يعدُّون] محطَّة الـ (سي.إن.إن) مصدراً رئيساً للمعلومات المحليَّة. وأصبحت شبكة الإنترنت ظاهرة كونيَّة على نحو متزايد في ظلِّ تطوُّرٍ فعَّال في كلِّ القارَّات»[١١]. ولينقلنا بالتفاتةٍ واضحةٍ منه إلى أهمِّيَّة الثَّقافة الأَمريكيَّة وقدرتها علىٰ اختراق المتلقي والهيمنة عليه أينما كان. ولكنَّ الأهمَّ بالنِّسبة له أن تصل إلى المتلقِّي.

وهو علىٰ الرُّغم مما يدَّعيه من عدل الأمريكيين وتسامحهم وتمازجهم الثَّقافي والحضاري ... فإنَّهُ يحذِّر الأمريكيين من الوقوع تحت تأثير أيِّ فكرٍ آخر أو حَتَّىٰ الحوار معه مهما انطوى عليه من أطروحات، بل إنَّه يصادر علىٰ الآخرين حقَّ أن يمتلكوا أو يحافظوا علىٰ خصائصهم الشَّخصيَّة والحضاريَّة، ومن ذٰلكَ قوله: «وفي الوقت نفسه، يجب علىٰ الأمريكيين ألا يخضعوا لتأثير أفكار مثل تلك التي يطرحها **لي كوان يوي** رئيس وزراء سنغافورة، أو **مهاتير محمد** رئيس وزراء ماليزيا، اللذان يزعمان أنَّ هناك "طريقاً أسيويًّا"، وأنَّ هذا الطَّريق لا

---

١٠ . م.س. ص ٢٧.

١١ . م.س. ص ٣٠.

يحقُّ لغير الآسيويين أن يحكموا عليه، وأنَّه يتعيَّن السَّماح له بأن يملي سياق الأحداث علىٰ كلِّ من يعمل في ذٰلكَ الرُّكن من العالم. وهو زعمٌ يمكن [عدَّه] رطانةً سياسيَّة تحرِّكها المصالح الشَّخصيَّة»[١٢].

هٰذه الطَّريقة في التَّفكير ليست جديدةً علىٰ أيِّ حال، إِنَّهَا جزءٌ من العقليَّة الغَرْبيَّة ليس بوصفها عقليَّةً غربيَّةً وإِنَّمَا بوصفها قوَّةً حضاريَّةً تسود العالم، ناهيك عن خصائص العقلية الغَرْبيَّة. ولن نرجع كثيراً إلىٰ الوراء، سنعود إلىٰ انهيار الاتحاد السوفيتي وما أثاره من تعليقات غربيَّة كرسها **جورج بوش الأب** وكررها كثيراً عندما قال: «قيمنا هي التي انتصرت، وفلسفتنا هي التي انتصرت، وأخلاقنا هي التي انتصرت...»، وكان يربط مع ذٰلكَ دائماً قوله: «هيمنا هي التي يجب أن تسود العالم».

هٰذه الأفكار كرَّرها السِّياسيون الأمريكيون خاصَّةً مُنْذُ انهيار الاتحاد السوفيتي مئات المرات، وكرسها الكتاب والصحافيون والمفكرون. انطلاقاً من ذٰلكَ أُريد من العولمة وخُطِّط لها من أجل أن «تتغلَّب فيها نوازع الاستئثار والهيمنة، (لتكون) نتيجتها تدمير الثَّقافة والثَّقافات، ما دام الهدف إلغاء الآخر بفرضِ التَّجانس عليه، فمنتجات الثَّقافة وإنتاجاتها تحوَّل إلى سلعةٍ تتحكَّم فيها قوانين السُّوق الَّتي لا تروِّج ولا تبتغي غير الجوانب الماديَّة الَّتي تضمن لها الرِّبح. وتنتهي العولمة، من جهة ملازمة أُخْرَىٰ، إلىٰ ممارسة ما يشبه العدوان الممنهجَ علىٰ ثقافات الشُّعوب وقيمها، وخصوصيَّاتها، وإبداعات تراثاتها. فيكون علىٰ البلدان جميعها أَن ترتدي الثَّوب أَو اللَّون الواحد، وأَن تأكل الصَّحن الواحد، وأَن تقرأ الكتاب الواحد، وأَن يصاغ لها طموحات واحدة، وأَذواقٍ واحدة،

١٢ . م.س. ص ٣٦.

وأَفكارٍ واحدة، ونمط حياة واحدٍ. وتغسل الأَدمغة، فتتماثل وتتجانس بما يفصَّلُ لها، بعدما أُفقِدَت كلَّ عناصر المناعة والفكر النَّقديِّ من خلال تدمير المعرفة والذَّاكرة»[١٣].

إذا كانت نقطة انطلاق الممارسة الصِّرَاعيَّة من القوي تجاه الضعيف عامَّة، وبَيْنَ الشَّرْق والغَرْب خاصَّة، هي إيمان القوي بأنَّهُ صاحب القيم الصَّحيحة التي يجب عليه نشرها وفرضها علىٰ أمم العالم الأخرى، فإنَّ هٰذه الممارسة والإيمان الذي تقوم عليه لا تعدو كونها بنية لا شعوريَّة تقود الأمَّة قيادة لاشعوريَّةً، غير واعيةٍ، تدفعهم أبناء الأمَّة إلىٰ الانجراف وراء قادتهم انجرافاً أعمى، من خلال مجموعة من الشعارات التي يرفعها القادة مرتبطة بالمرحلة والظرف والزمان. ومن هٰذا الباب كان اندفاع الأمريكيين وراء **جورج بوش الابن** في حربه الاستباقية ضدَّ من يفكر في الاعتداء علىٰ أمريكا حَتَّىٰ مع استمرار انكشاف أخطاء هٰذه السياسة. ولا يختلف حال الأمريكان اليوم عن اندفاع أبناء الأمم الأوروبية في احتلال دول العالم المختلفة، ولا يختلف حالهم عن حال أوروبيي العصور الوسطى الذين انفعوا باسم الصليب لاحتلال فلسطين وأجزاء كبرى من بلاد الشام. والأمثلة علىٰ ذٰلكَ أكثر من كثيرة، إِنَّهَا موجودة في كلِّ العلاقة الصِّرَاعيَّة بَيْنَ الشَّرْق والغَرْب عبر التاريخ، علىٰ الأقل العلاقة بَيْنَ الشَّرْق والغَرْب.

وعي الصِّرَاع

إذا كان الإيمان بثقافة الأمَّة الخارقة ممارسةً لاشعوريَّةً فإنَّ العلاقة الصِّرَاعيَّة بَيْنَ الشَّرْق والغَرْب تقوم علىٰ الوعي والشُّعور أكثر مما تقوم علىٰ اللاشعور،

١٣ . ميشيل إدَّه: **مستقبلنا العربي وتحدِّيات العولمة** . ضمن مجلة؛ **المعرفة** . وزارة الثَّقافة . دمشق . العدد ٤١٠ . تشرين الثَّاني/نوفمبر ١٩٩٧م . ص ١٤.١٥.

وخاصَّة من طرف الغَرْب، لأنَّ الشَّرْق كان عَبْرَ التَّاريخ، ورُبَّما حَتَّىٰ الآن، قائماً في صراعيَّته مع الغَرْب علىٰ اللاشعور النَّابع من الإيمان بمصداقيَّة ثقافته وقيمه وليس بقصد الصِّرَاع والرُّوح العدوانيَّة.

انطلق الغَرْب عبر تاريخ في صراعه مع الشَّرْق من تخطيطٍ مسبَّقٍ، ووعيٍ بعمليَّة الصِّرَاع، والأدلَّة علىٰ ذٰلكَ جدُّ كثيرةٍ، نبدأ بالإغريق وأسلافهم اليونان الذين تعلموا في الشَّرْق وسطوا علىٰ تراثه وادَّعوه لأنفسهم، بل أنكروا فضل أيِّ أمَّة عليهم. ومثل ذٰلكَ تماماً ما حدث من الأوروبيين في العصر الوسيط والحديث، ولٰكن بوضوحٍ أكبر وصفاقةٍ أشد.

لم تتغيَّر هٰذه السَّيرورة في المبدأ مع الزَّمن، فما إن خلص الأوروبيون من نهضتهم حَتَّىٰ بدؤوا بالتَّخطيط للعالم العربي خاصَّةً والإسلاميِّ عامَّةً، فقد أدركت أوروبا إدراكاً مباشراً في القرن التَّاسع عشر عندما كانت تخطِّط لانهيار الدَّولة العثمانيَّة أنَّ من سيخلف الدَّولةَ العثمانيَّةَ دولةٌ عربيَّةٌ واحدةٌ تمتدُّ من المحيط إلىٰ الخليج، وتشكِّلُ بوحدتها قوَّةً تَحُدُّ من الامتداد الأوروبي والقوَّة الاستعماريَّة لهٰذه الدُّول، وتبعتها في ذٰلكَ مباشرةً الولايات المتحدة الأَمريكيَّة الوريث الشَّرعي للإمبراطوريَّة الأوروبيَّة، تماماً كما كانت روما الوريث الشَّرعي للإمبراطوريَّة اليونانيَّة.

ولا عجب لذٰلكَ أن تعقد المؤتمرات والنَّدوات والمشاورات للتَّعامل مع هٰذه الأمَّة. ولعَلَّ من أبرز هٰذه المؤتمرات المؤتمر الذي أشرف عليه وتابعه مدير شؤون المستعمرات البريطانيَّة **كامبل بينرمان** وَحَمَلَ اسمه، وانعقد هٰذا المؤتمر في لندن ما بَيْنَ ١٩٠٥م و١٩٠٧م لدراسة وضع الوطن العربيِّ وآفاقه المستقبليَّة وكيفيَّة التَّعامل معه، مستفيداً من الوثائق والحقائق والمعلومات التي أرسلها الجواسيس

الأوروبيون من المنطقة العربيَّة طيلة نحو مئتي سنةٍ سبقت المؤتمر. وبعد سنتين من الدِّراسة المفصَّلة، والمناقشات التي شارك فيها كبار أعلام الفكر الأوربي وعلماؤه في مختلف الميادين، والمسؤولون السِّياسيون والاقتصاديون، خرج المؤتمرون بقائمةٍ طويلةٍ تُبَيْنَ «كيفيَّة تمزيق الوطن العربي جغرافيًّا، وإضعافه اقتصاديًّا، وعلميًّا وثقافيًّا، وتمزيق وحدته بشريًّا، لأنَّها رأت في وحدته وقوَّته نفياً لوجود الإمبراطوريات الاستعماريَّة. وقد حدَّد المؤتمر مجموعةً من الوسائل والأساليب المختلفة التي يجب اتِّباعها والعمل علىٰ تنفيذها من قبل الدُّول الاستعماريَّة مجتمعةً، وهي إقامَة حاجزٍ بشريٍّ قويٍّ وغريبٍ علىٰ الجسر البريِّ الذي يربط أوروبا بالعالم القديم، ويربطها معاً بالبحر الأبيض المتوسط، يجب أن تقوم في هٰذه المنطقة، وعلىٰ مقربةٍ من قناة السُّويس، قوَّةٌ عدُّوةٌ لشعب المنطقة، وأن تكون صديقةً للدُّول الأوربيَّة»[١٤].

وعلىٰ هٰذا الأساس جاءت الاتفاقيَّة الإنجليزيَّة الفرنسيَّة **سان ـ ريمون** وبعدها اتفاقيَّة **سايكس– بيكو** المعدِّلة لها عام ١٩١٦م التي جزَّأت المشرق العربيَّ ووزَّعته إلىٰ مناطق نفوذٍ بَيْنَ فرنسا وإنجلترة، وعلىٰ إثرها جاء وعد **بلفور** في الثَّاني من تشرين الثَّاني عام ١٩١٧م تجسيداً لهذا المخطَّط. وبعد ذٰلكَ علىٰ الفور إسقاط الإمبراطوريَّة العثمانيَّة ودخول الاستعمار الأوروبي إلىٰ المنطقة العربيَّة لتنفيذ مخطَّطاته، وزرع الكيان الصهيونيِّ في فلسطين الذي شكَّل منعطفاً حاسماً في تاريخ البشريَّة كلِّها لا في تاريخ المنطقة العربيَّة وحدها، إذ مُنْذُ إنشاء هٰذا الكيان دخل العرب في دوامَّةٍ من الَّتخدير والضَّياع واللاوعي لم يكتب لها أن

١٤ . الدكتور ماجد شدود: **الاستراتيجية**. ص٣٤٢. وانظر كذلك كتابنا: **انهيار أسطورة السلام**. ص١٠٢. وارجع إلى مزيد من التَّفاصيل في فصل المعطيات التَّاريخية والدولية.

تأخذ بالتَّبدُّد حَتَّى كانت الولايات المتحدة الأَمرِيكيَّة أكبر اللاعبَيْنَ علىٰ السَّاحة الدَّوليَّة كلها، وبدأت هي بتنفيذ مخطَّطاتها ومشاريعها. ولَعَلَّ آخرها ما سمي مشروع الشَّرْق الكبير، هو آخر ما تفتقت عنه الذهنية الأَمرِيكيَّة ومعها الأوروبية للسَّيطرة علىٰ الوطن العربي.

من ناحيةٍ تاريخيَّة الفكرة لا بُدَّ من الرَّبط بَيْنَ الشَّرْق الأوسط أَو الشَّرْق أوسطيَّة من جهة أولى والشَّرْق الأوسط الكبير من جهةٍ ثانيةٍ. فالشَّرْق الأوسط في الفكر الغَرْبيِّ التَّقليديِّ هو الاصطلاح المصطنع لآسيا تحديداً ويضمُّ دول آسيا العربيَّة والباكستان وأفغانستان ودول آسيا الوسطى. والشَّرْق الأوسط بهٰذه القسمة له تتمَّات في هٰذا الشَّرْق هي الشَّرْق الأدنى والشَّرْق الأقصى. وكان المقصود بتسمية الشَّرْق الأوسط التَّعامل مع هٰذه المنطقة تعاملاً غَيْرَ قوميٍّ لسهولة ضمِّ الكيان الصهيوني إليها والقيام من ثَمَّ بهضم هٰذا الكيان.

فكرة الشَّرْق الأوسط بهٰذا الطَّرح المضمر لضمِّ الكيان الصِّهيونيِّ باءت بالإخفاق، وتبَيْنَ عدم جدواها، وأكَّد إخفاقها الذَّريع الشَّعب المصريُّ المقيَّد بالعلاقات التَّطبيعيَّة الكثيرة والقويَّة مع الكيان الصِّهيونيِّ ولكنَّهُ مع ذٰلكَ لم يتمكَّن من هضم الكيان الصِّهيونيِّ، وظلَّ التَّطبيع مقتصراً علىٰ الطَّابع الرَّسميِّ أو الحكوميِّ والقليل القليل ممن باعوا الهويَّة لغَرَضٍ بخس.

عندما انكشفت هٰذه الحقيقة وتأكَّدت للدَّوائر الأَمرِيكيَّة المختصَّة وللكيان الصِّهيونيِّ بدأ التَّفكير في المشروع البديل الذي يمكن من خلاله تسويق الكيان الصِّهيونيِّ في المنطقة وهضمه. ولذٰلك ليس من الخطأ الظَّنُّ أَو حَتَّى الاعتقاد بأنَّ فكرة الشَّرْق الأوسط الكبير ليست بالجديدة أبداً ولكِنَّها لم تتحدَّد في الصِّيغة المرسومة إلا في السَّنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، أو رُبَّما

السَّنوات الأخيرة من القرن العشرين. بل من شبه المؤكَّد أن هٰذه الفكرة قد أخذت أبعادها الرَّئيسة قبل الحادي عشر من أيلول ٢٠٠٠م، ورُبَّما، وهذا ظنٌّ بل اعتقادٌ خاصٌّ، يكون الحادي عشر من أيلول جزءاً من هٰذا المشروع، إذ بعد أشهرٍ قليلةٍ من الحدث خرجت علينا الإدارة الأَمريكيَّة بدعوى تجفيف منابع الإرهاب الماديَّة والمعنويَّة والثَّقافيَّة والرُّوحانيَّة، وبدأت منذ أواسط عام ٢٠٠١م بمطالبة الدُّول العربيَّة بتعديل مناهج التَّربية والتَّعليم، وخاصَّة التَّربية الدِّينيَّة والوطنيَّة والقوميَّة، محدِّدة طلباتها بإلغاء التَّربية القوميَّة، وإلغاء فكرة العروبة، وحذف بعض الآيات الدِّينيَّة من المناهج الدِّراسيَّة، وعلَّقنا حينها بأَنَّها قد تطالب لاحقاً بحذفها من القرآن ذاته، ولم يبتعد تعليقنا عن الواقع إذ ظهر في أواخر عام ٢٠٠٤م ماُ سِّمي القرآن الصَّحيح، أَو الفرقان الحقيقي، الذي كان استنساخاً للإنجيل والتَّوراة بلفظٍ يشبه اللفظ القرآنيَّ. وطالبت بوضع مقرَّرٍ بديلٍ عن كلِّ ذٰلكَ هو: تربية التَّسامح، الذي سرعان ما طبقته مصر. وتسعى بعض الدُّول العربيَّة إلىٰ تطبيقه بطريقة أَو بأُخْرَىٰ.

رُبَّما يكون أوَّل تداولٍ عَلَنِيٍّ كبيرٍ لفكرة الشَّرْق الأوسط الكبير علىٰ إثر الإعلان الصَّارخ الذي طرحه وزير الخارجيَّة الأمريكي **كولن باول** بعد سقوط بغداد بأشهرٍ قليلةٍ وكأَنَّهُ تعبيرٌ عن نشوة النَّصر وتجسيدٌ للعنجهيَّة الأَمريكيَّة التي تريد إعادة صوغ العالم بما يتوافق مع رغباتها ومصالحها. ولٰكن هل كان **باول** أوَّل من طرح هذه الفكرة؟

لا شكَّ في أنَّ طرحه هٰذا هو الإعلان الكبير لتداولها إعلاميًّا وسياسيًّا، ولٰكن إذا رجعنا إلىٰ عام ٢٠٠٠م، وتحديداً إلىٰ ربيع هٰذا العام لوجدنا المجلَّة العسكريَّة الأَمريكيَّة (فصليَّة القوَّات المشتركة . Joint Force Qurterly)» التي

نشرت في ربيع ٢٠٠٠م مقالة بعنوان: **الشَّرْق الأوسط الكبير**، ذكرت فيه «أنَّ إضافة تركيا وباكستان وأفغانستان والقرن الأفريقي إلىٰ ما يسمَّى الشَّرْق الأوسط تحقِّق للولايات المتحدة السَّيطرة التَّأمَّة على النِّفط وتطوير مبدأ التَّدخُّل العسكري الأمريكيِّ؛ برًّا وجوًّا وبحراً في أيِّ مكان من العالم، كما تحقِّق ضمان أمن إسرائيل وتفوقها وسيطرتها على المنطقة»[١٥].

وفي آب من عام ٢٠٠٢م أشارت جريدة الواشنطن بوست إلىٰ أنَّ إدارة الرَّئيس **جورج بوش الابن** تنوي بدء العمل ببرنامجٍ جديدٍ قريباً لتشجيع ما أسمته الإصلاحات السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والتَّعليمية في الشَّرْق الأوسط. وسيَتَضمَّن البرنامجُ تمويلاً لصحفيين ونشطاء سياسيين[١٦] (أي قِوى معارضة تندرج تحت ألوية حقوق الإنسان والحريَّة والدِّيمقراطيَّة). وأكَّدت الجريدة نقلاً عن مسؤولين أمريكيين قولهم: «إنَّ وزير الخارجيَّة **كولن باول** سيكشف قريباً عن هٰذا البرنامج الذي سيتضمَّن كذٰلكَ إعادة النَّظر في فعاليَّة معونة أجنبيَّة قدرها مليار دولار توجَّه للمنطقة تريد الإدارة تخصيصها بفعاليَّة أكبر لحفز ما تراه إصلاحات اقتصاديَّة وديمقراطيَّة(١٧). وفي الخبر ذاته علَّق مسؤولٌ كبيرٌ في الخارجيَّة الأَمرِيكيَّة قائلاً: إنَّ هٰذا البرنامج تغيير تامٌّ في المعايير التي ننظر من خلالها للشَّرق الأوسط... إنَّ كيفيَّة تسيير شؤون هٰذه البلدان يجب أن تكون موضع اهتمامنا.

---

١٥ ـ الدكتور خير الدين عبد الرحمن: **من أجل استعادة الوعي العربي** ـ ضمن جريدة **البعث** ـ العدد ١٢٥٤٢ ـ الاثنين ٢٨ شباط ٢٠٠٥م.

١٦ ـ خبر نشرته جريدة الواشنطن بوست يوم **الأربعاء ١٤٢٣/٦/١٢هـ الموافق ٢٠٠٢/٨/٢١م. وتناقلته وكالات الأنباء العالميَّة.**

١٧ ـ م. س ـ ذاته.

ولٰكنَّ **كولن باول** لم يعلن هٰذا الخبر بعد أقلٍّ من شهر كما وعدت الصَّحيفة بل تأجَّل ذلك إلى ما بعد سقوط بغداد بأكثر من شهرين. وبعده بأكثر من نصف السِّنة أعلن **جورج بوش الابن** ذلك المخطَّط، أو المشروع. ومع الحرب العدوانيَّة الهمجيَّة التي شنَّها الكيان الصِّهيونيُّ علىٰ لبنان في تموز ٢٠٠٦م، التي ظنَّت الولايات المتَّحدة وإسرائيل وكثيرٌ من الدُّول العربيَّة معهما أنَّ الكيان الصِّهيونيَّ سيؤدِّي إلىٰ تقصير الطَّريق علىٰ تحقيق المطامع الأَمريكيَّة في المنطقة راحت وزيرة الخارجيَّة الأَمريكيَّة **كوندا ليزا رايس** التي خَلَفَتْ **كولن باول** تعلن مراراً أنَّ هٰذه الحرب هي بداية تحقُّق مشروع الشَّرْق الأوسط الكبير، وأنَّ الحرب لن تنتهي إلا ببداية انطلاق مشروع الشَّرْق الأوسط الكبير، وعبارتها الشَّهير كانت: آن الأوان لتحقيق مشروع الشَّرْق الكبير.

هٰذا المشروع لم يكن خافياً علىٰ المثقَّفين والمهتمَّين، ولذٰلك نشر الكاتب الأمريكيُّ **وليام فاف**، قبل الحرب علىٰ العراق، مقالاً قال فيه: «إنَّ الحرب ضدَّ العراق تدخل في إطار خطَّةٍ بعيدة المدى لإعادة تشكيل خريطة العالم الإسلاميِّ واستبدال الحكومات الموجودة في المنطقة كافَّةً»[١٨]. وكذٰلكَ نشر الكاتب البريطانيُّ **باتريك سيل** مقالاً قال فيه: «إنَّ المتطرِّفين حول **بوش** مع **شارون** يرون أنَّ هٰذه الحرب ستكون فرصةً لإعادة ترتيب الجوار الإسرائيليِّ»[١٩]. وقد علَّق **وليام بيكر**[٢٠] علىٰ ذٰلكَ قائلاً: «أعتقد أنَّ هٰذا جزءٌ لا يتجزأ من خطَّة، ولٰكن

---

١٨ ـ أحمد منصور: **المخطط الأمريكي الجديد تجاه الدول العربية والإسلامية؛ لقاء مع وليام بيكر** ـ برنامج بلا حدود ـ محطة الجزيرة ـ يوم الأحد ١٤٢٣/٨/٢٠هـ الموافق ٢٠٠٢/١٠/٢٧م.

١٩ ـ م. س ـ ذاته.

٢٠ ـ مؤسس ورئيس مركز مسيحيون ومسلمون من أجل السَّلام.

ما هو أكبر حَتَّىٰ من ذٰلكَ هو أنَّ المفهوم الغَرْبيَّ للإمبرياليَّة والاستعمار الجديد يريد أن يعيد ترتيب الوضع في مختلف البلدان في المنطقة من أجل السَّيطرة علىٰ النِّفط والغاز وموارد الطَّاقة في المستقبل، هٰذه هي السِّيادة في مفهومها الحقيقي. أي لن يكون هناك منظمة أوبك بإمكانها أن تهدِّد الأمريكان كما فعل الملك **فيصل** في عام ٧٢، سيكون بإمكاننا أن نحصل علىٰ كلِّ البترول والبِنْزين الذي نريده»[٢١].

كلُّ ما مضى من تاريخ العلاقة بَيْنَ الشَّرْق والغَرْب، والواقع الرَّاهن المنتبج بالشَّواهد والأدلَّة والممارسات العدائيَّة الوحشيَّة من الغَرْب للشَّرق... يقول إنَّهُ من غير الممكن أن يسمح الغَرْب لنا بأن نمتلك أيَّ فرصة قوَّةٍ حقيقيَّةٍ في أيِّ ميدان من الميادين، حَتَّىٰ في الرِّياضة التي لا تقدِّم ولا تؤخِّر في شيءٍ، فكيف يمكن أن يكون في غيرها من الميادين؟ ولذٰلك لا يمكن أن نفهم أنَّ مشروع الشَّرْق الأوسط الكبير مشروعٌ فيه أيُّ مصلحة للعرب إلا عَرَضاً وبالضَّرورة التي لا معدَّى عنها. وإذا كانت دلالات العداء والتَّغيير في المنطقة العربيَّة لصالح العالم الغَرْبيِّ واضحةً إلى حدٍّ كبيرٍ في هذا المشروع فإنَّ ذٰلكَ لا يكفي، ويجب أن نتعمَّق في قراءة المشروع في إطار المشروع الغَرْبيِّ للوطن العربيِّ.

يبدو أنَّ الجواب في المراد. والمراد هو الوطن العربيُّ تحديداً، ما ضَمُّ دول المنطقة إلاَّ لتكريس تذرير المنطقة وتفتيتها وتشتيتها، ومحو اسم العروبة عنها ليكون وجود الكيان الصهيوني مشروعاً. ولذٰلك ليس المقصود من بقاء إسرائيل

٢١ . وليام بيكر: اللقاء السابق.

شوكةً في حلق المنطقة إلاَّ بقاء المنطقة مشتتةً ضعيفةً، تحت السَّيطرة وليس من أجل إسرائيل ذاتها.

مشروع الشَّرْق الأوسط الكبير هو آخر ما تفتَّقت عنه العقليَّة الغَرْبيَّة للمنطقة العربيَّة، ولن يكون ختام هٰذه المشاريع، كما أنَّهُ لم يكن أولها.

الحقيقة أنَّ المشروع ليس جديداً أبداً في مبدئه وصورته وغايته. إنَّهُ حلقة في سلسلة مشاريع بدأها الغَرْب مُنْذُ أواسط القرن التاسع عشر علىٰ الأقل من أجل إضعاف العرب وتجزئتهم وتفتيتهم وشغلهم ببعضهم بعضاً وبمشكلات لا حدَّ لها ولا نهاية من أجل الحفاظ علىٰ ما هم عليه من ضعف وهوان وعجز عن الفعل.

بدأ الغَرْب بترويج عبارة الشَّرْق الأوسط مُنْذُ مطالع القرن العشرين، تزامناً مع بدء العمل بالمشاريع والمخطَّطات التي أعُدِّت للوطن العربيِّ من تجزيء وتفتيت وزرع الكيان الصِّهيوني. وتمَّ اختراع هٰذا الاصطلاح من أجل نزع الهويَّة القوميَّة العربيَّة عن المنطقة، وتحويلها إلىٰ قوميَّات وأعراق، وقد اخترع هٰذا الاصطلاح عن قصدٍ في أغلب الظنِّ، وفي احتمال ضعيف من دون قصد مسبق تَمَّ استثماره مع الانتباه إلىٰ مضمونه وفائدته. ومشروع الشَّرْق الأوسط الكبير امتدادٌ للشَّرق الأوسط مع إضافة التَّطوُّرات التي حصلت طيلة القرن العشرين، والاستفادة من إخفاقات الغَرْب في تنفيذ مشروعه، والاستفادة مما نجحوا في الاستفادة منه في محاولاتهم وتجاربهم السَّابقة.

ولذٰلك ستكون هناك مشاريعٌ جديدةٌ بتطوراتٍ جديدةٍ ومعطياتٍ جديدةٍ تستفيد من إخفاقات اليوم والماضي، وتبني علىٰ نجاحات اليوم والماضي، سيظلُّ

الغَرْب يخطِّط ويدبِّر وينجح ويخفق... فمتى نخطِّط نحن، ومتى نكف عن ممارسة دور متلقي الصَّدمات ونتحول إلىٰ صانعي صدمات؟

آفاق الصِّرَاع

وهنا لا بدَّ لنا أن نتساءل مع **ميشيل إدَّه** ومع كثير غيره من المتسائلين: «أَلا تسوِّغُ لنا هٰذه الوقائع، الَّتي تنظم كذٰلكَ بلداناً من الشَّمال المتقدِّمِ، أَن نأخذَ بعين الحسبان الجدِّي الخطير إمكان بل تسارع الانتقال من نهاية الجغرافيَّة إلىٰ ما يشبه تدمير الثَّقافة والذَّاكرة والتَّاريخ نفسه بالنِّسبة للبلدان والشُّعوب؟»[٢٢].

يمكن أن نعيد صوغ السُّؤال بطريقةٍ أُخْرَىٰ علىٰ النَّحو الذي يشغل بال الكثيرين، وهو لبُّ السُّؤال المطروح آنفاً في حقيقة الأمر: هل سيستطيع الغَرْب، والولايات المتحدة خاصَّةً، أن تمحو الثَّقافات جميعها لصالح ثقافة عولميَّة واحدة أو ما تسمى الأمركة؟

الحقُّ أنَّ المسألة، علىٰ خطورتها وفداحة هولها من النَّاحية النَّظريَّة وما يمكن تلمُّسه من آثار واقعيَّة، ليست بالمعضلة المستعصية علىٰ الحلِّ، كما أنَّ أبعادها ليست علىٰ النَّحو المشار إليه في مخططات الغزو الثَّقافي الذي يمارس علىٰ الشُّعوب بنوع من الحرب النَّفسيَّة الخفيَّة التي تعتمد الإيحاء وسيلةً أساسيَّةً لها.

يرى **هنتنجتون** أنَّ «الفروق بَيْنَ الحضارات ليست فروقاً حقيقيَّة فحسب، بل هي فروق أساسيَّة، فالحضارات تتمايز الواحدةُ عن الأُخْرَىٰ

٢٢ . ميشيل إدَّه: **مستقبلنا العربي وتحدِّيات العولمة**. ص ١٦.

بالتَّاريخ واللغة والثَّقافة والتَّقاليد، والأهم الدين. وللنَّاس في الحضارات المختلفة آراءٌ مختلفة عن العلاقات بَيْنَ الله والإنسان، والفرد والمجموعة، والمواطن والدَّولة، والآباء والأبناء، والزَّوج والزَّوجة، وآراء مختلفة عن الأهمِّيَّة النِّسبيَّة للحقوق والمسؤوليَّات والحريَّة والسُّلطة والمساواة والتَّسلسل الهرمي. ولهٰذه الفروق نتاج قرون، ولن تختفي سريعاً. إنَّها فروقٌ أساسيَّة بدرجة أكبر من الاختلافات بَيْنَ [العقائديَّات] السِّياسيَّة والنُّظم السِّياسيَّة؛ والاختلافات لا تعني النِّزاع بالضَّرورة، والنِّزاع لا يعني العنف بالضَّرورة»[٢٣].

ولذٰلك يخفق الكثيرون عندما يتحدَّثون عن الثَّقافة وانمحائها بتأثير العولمة أو غيرها من العوامل ذٰلكَ أنَّ القسم الأكبر من هٰذه الثَّقافة إنَّما هو مقوِّماتٌ جوهريَّة من العسير العسير تغييرها، هٰذا إن لم يكن من قبيل المستحيل. سيَّان كان هٰذا الانمحاء بفعل الصِّرَاع أم بفعل التَّلاقح الذي تفرزه العولمة.

فإن كان انمحاء الثَّقافة المزعوم، والذي هو بالمحصِّلة خصوصيَّة الأمَّة وهويَّتها، بسبب الصِّرَاع أو «الاختلافات السِّياسيَّة كثيراً ما تكرَّس من خلال ارتباطاتها السِّياسيَّة بالجذور الغامضة للثَّقافة، سواء الرُّوحيَّة أو التَّاريخيَّة. ونتيجةً لذلك يصبح تهديد ثقافة المرء تهديداً لدينه أو لأسلافه. وبالتَّالي تهديداً لجوهر هويَّته»[٢٤]. وهنا ستكون النَّتيجة التي يفترض أن تكون في طليعة الاحتمالات، ألا وهي ردَّة الفعل بالارتكاس على الذَّات والتَّقوقع حولها لحمايتها، وفي هٰذه الحال يصبح المرء أو الأمَّة

٢٣ . صامويل هامتنغتون وآخرون: **صدام الحضارات** . مركز الدِّراسات الاستراتيجيَّة والبحوث . بيروت . ط١ . ١٩٩٥م . ص٢٠.

٢٤ . دافيد روثكوبف: **في مديح الإمبرياليَّة الثقافيَّة** . ص ٢٧.

بمعنى من المعاني أشدَّ عناداً وتمسَّكا بالهويَّة، بل قد يصل الأمر إلى التَّمسك بالقشور والشَّكليَّات أيضاً من خصوصيَّات الأمَّة.

أمَّا إن كان الانمحاء أو الزَّوال أو الاندماج هٰذا بفعل التَّلاقح أو الانتخاب الطَّبيعي أو ما يشبه ذلك فإنَّ «العولمة وإن كانت تعمل على توحيد العالم حضاريًّا بفعل التِّقنيَّات الجديدة، فلا يعني ذٰلكَ أنَّها ستوحِّد العالم ثقافيًّا أو أنَّها ستقضي على الخصوصيَّات الثَّقافيَّة. فما دام المرء يفكِّر ويتكلَّم أو يرمز ويتخيَّل، فهو يتفرَّد عبر أعماله الإبداعيَّة وابتكاراته الأصيلة. بهٰذا المعنىٰ لن تصبح الثَّقافة واحدةً حَتَّىٰ داخل الولايات المتَّحدة التي تتصدَّر قوىٰ العولمة، بل سيبقىٰ المجال مفتوحاً أمام التَّكوثر المعرفي والتَّباين الدَّلالي والتَّنوع البشري الخلاق»[٢٥]. وعندما تتعرَّض بعض البلدان أو حتَّىٰ كلها، لعمليَّة التَّحديث والسَّعي إلىٰ النُّهوض سيَّان كان ذٰلكَ باجتهادٍ ذاتيٍّ أم بتحريض خارجيٍّ فإنَّها «قد تتغرَّب بأشكال سطحيَّة، دون أن تفعل ذٰلكَ علىٰ صعيد الأبعاد الأكثر أهمِّيَّة للثَّقافة، أي أصعدة اللغة والدِّين والقيم. وفي الحقيقة فإنَّ البلدان حين تتحدَّث تلوذ بثقافاتها وديناتها التَّقليديَّة الضَّيقة هرباً من العالم الحديث. ففي مختلف أرجاء الكرة الأرضيَّة يفضي التَّعليم والدِّيمقراطيَّة إلىٰ التَّأصيل. ومع تراجع قوَّة الغَرْب سيصبح ما عدا الغَرْب أكثر تأكيداً لذاته»[٢٦].

أمَّا فيما يخصُّ اضمحلال بعض الثَّقافات وزوالها فلا يوجد ما يمنعه تاريخيًّا ولا منطقيًّا، وكذٰلكَ سهولة سيادة الأنْموذج الآخر علىٰ النَّحو الذي يقدِّمه **باربر**

---

٢٥ . علي حرب: **صدمة العولمة في خطاب النَّخبة** . م.س.

٢٦ . صامويل هانتغتون: **الغَرْب ... إنَّه فريدٌ ولكنَّه ليس كلِّيًّا جامعاً** . ترجمة؛ فاضل جكتر . ضمن مجلَّة؛ **أوروبا والعرب** . العدد ١٦٦ .١٦٧ . أيَّار . حزيران . ١٩٩٧م . ص٥٥ . ٥٦.

ليدلِّل من خلاله على أثر خطر الغزو الثَّقافي بقوله: «حَتَّىٰ في بلدٍ عرف طويلاً بعزلته الثَّقافيَّة كسويسرا، تمَّ اختيار فيلم النَّاهي ـ Terminator كفيلم أوَّل، وكتاب سكارليت كأفضل كتاب وكاسيت لآلئ وماسات برنس [بوصفه] الألبوم الموسيقي الأكثر مبيعاً للعام ١٩٩١م. وهذه كلَّها نتاجات أَمرِيكيَّة. لا عجب أن يقبل اليابانيون علىٰ شراء استوديوهات هوليود حتَّىٰ بما يفوق نهم الأمريكيين في اقتناء أجهزة التِّلفزيون اليابانيَّة»[٢٧]. فهل يدل هٰذا فعلاً علىٰ خطر حقيقي؟ كلاَّ، لأنَّ تصدر هذه الأعمال لوائح التَّرتيب والأفضليَّة هو الأمر المنطقي الذي يصعب تسويغ نقيضه لأنَّ الإنتاج المتميز سمة يفترض أن تكون ملازمة للأمَّة الأكثر تقدُّماً حضاريًّا وتقنيًّا فمنتجات الحضارة الإسلاميَّة إبَّان مجدها كانت مدهشة للعالم، وكانت مثالاً يكأد الآخرون في احتذاء حذوه، وكذلك كانت منتجات الحضارات الأُخْرَىٰ كاليونانيَّة والفارسيَّة، ولذلك فإنَّ تصدُّر بعض المنتجات الأَمرِيكيَّة أو اليابانيَّة أو الألمانيَّة لوائح الأفضليَّة ليس يعني بالضَّرورة خطراً ساحقاً ماحقاً. ولٰكنَّها بالضَّرورة ستؤثِّر في ثقافات غيرها من الأمم، وكلُّ أمَّة تخضعُ لقدر من التَّأثير يتناسب تناسباً عكسيًّا مع درجة حضور الرُّوح الحضاريِّ لهذه الأمَّة ومكانتها في السُّلَّم الحضاري. **وعلىٰ أيِّ حالٍ فإنَّ الأمم العاجزة عن المحافظة علىٰ جوهر كينونتها وروحها الحضاري والدِّفاع عن خصوصيَّتها، أي القابلة للذَّوبان في أيِّ محلول حضاريٍّ غريب عنها، فإنَّها غير جديرة بالبقاء، ولن تجد من يأسف عليها.**

---

٢٧ . بنيامين باربر: **عندما تأكل العولمة الدَّولة الوطنيَّة من فوق** . ترجمة؛ أحمد مغربي . ضمن جريدة: **السَّفير** . العدد ٨٠٦٤ . الخميس ١٩٩٨/٨/٦م.

هٰذا من ناحية الصِّرَاع الثَّقافي بمختلف مستوياته؛ الفكريَّة، والمعرفيَّة، والاجتماعيَّة، والنفسيَّة، والأخلاقيَّة... أمَّا من ناحية الصِّرَاع العسكري والتَّدخل المباشر في شؤون العالم العربيِّ فإنَّ السِّياسة الأَمريكيَّة اليوم تقدم أنموذجاً واضحاً لا لبس فيه لحتمية الصِّرَاع واستمراريَّته. فكما أنَّ الصِّرَاع الثَّقافي كان مُنْذُ وجد الشَّرْق والغَرْب ولم يزل، كذٰلكَ فإنَّ صراع المواجهة المباشرة وتحطيم الإرادات كان مُنْذُ وجد الشَّرْق والغَرْب ولم يزل.

مُنْذُ وجد الشَّرْق والغَرْب وكلاهما في كرٍّ وفرٍّ، القوي يسعى دائماً للسَّيطرة وفرض الإرادة علىٰ الطَّرف الآخر، ومبدأ هٰذا الصِّرَاع أنَّ أيَّ تمدد للضَّعيف سيكون علىٰ حساب القوي، ولذٰلك لن يسمح القويُّ طالما هو قادرٌ بأيِّ تمدُّد أَو راحة للضَّعيف.

الولايات المتحدة اليوم تقرأ هٰذه الصُّورة قراءةً واضحةً ولذٰلك أعلنت مُنْذُ الحادي عشر من أيلول إعلاناً صريحاً أنَّهَا لن تسمح بنشوء أيِّ قوَّةٍ في المنطقة العربيَّة مهما كلَّفها ذٰلكَ من ثمن، ولا يختلف حال الدُّول الإسلاميَّة في هٰذا الشَّأن عن حال الدُّول العربيَّة، ومن هنا كان البدء بأفغانستان الحد الشَّرْقي للأمَّة الإسلاميَّة، ثُمَّ العراق قلب العالم الإسلاميِّ وبوَّابة العرب الشَّرْقيَّة، ثُمَّ السُّودان والصُّومال... وهكذا. ولن تتوانى عن استخدام مختلف السُّبل والوسائل لتحقيق غاياتها، ولن يكون هناك فصل ما بَيْنَ الصِّرَاع العسكري والصِّرَاع الثَّقافي، ولمثل ذٰلكَ ينبِّه **بنيامين باربر** إلىٰ أنَّ «الهيمنة في مجال نظم الأفكار ربَّما ثبت أنَّها أشد أهمِّيَّة من السَّيطرة علىٰ الوسائط والأدوات [التِّقانيَّة]، لأنَّ الثَّقافة تفوق في أهمِّيَّتها كلَّ أنواع الأسلحة. ولعلَّها فكرة جديرة بالاهتمام فعلاً كما يرى **باربر** ـ فما مدى قدرات البنتاجون إذا ما قورنت مع عالم ديزني ؟ . ولٰكنَّه وقع

أيضاً في مزلق الطَّعام عندما تابع قائلاً: هل يستطيع الأسطول السَّادس أن يباري الـ"سي إن إن" ؟ مطاعم الماكدونالد في موسكو وزجاجات الكوكا كولا في الصِّين أنجزت ما لم يستطع الاستعمار المسلَّح إنجازه. ليست السِّلع وحدها وإنَّما أيضاً أسماء الماركات المسجَّلة هي ما يحدث الفوارق. الماركات تحمل معها صوراً لأنماط من العيش مما يغيِّر المدركات والمنظورات ويشكِّلُ تحدِّياً لمعطيات السُّلوك. ذلك هو مسرد الإغواء في الأفكار المشتركة لعالم الماك»[٢٨]...

الولايات المتحدة الأَمريكيَّة اليوم تدرك قرأت التَّاريخ جيِّداً وتحاول الاستفادة من كلِّ إخفاقات الأمم السَّابقة التي أدت إلىٰ انهيارها، وتسعى إلىٰ السَّيطرة على مختلف البقاع والأصقاع التي يمكن أن يأتي من أيُّ تهديدٍ أَو توتُّرٍ يقلقل وضعها أَو مكانتها. ولذٰلك فإنَّ تهديد الوطن العربي احتلال أراضيه ودوله وإكراه الدُّول العربيّة الأُخْرَىٰ علىٰ الخضوع أمرٌ لن يتوقف علىٰ الإطلاق حَتَّىٰ تنهار الإمبراطوريَّة الأَمريكيَّة.

خاتمة

الصُّورة استناداً إلىٰ واقع الأمَّة العربيَّة اليوم تبدو محزنةً وداعية إلىٰ اليأس والإحباط.

هٰذه حقيقة لا يمكننا الفرار منها. ولٰكن هل في هٰذا ما يسوِّغ لنا الاستكانة والاستسلام؟

لا نبالغ أبداً إذا قلنا إنَّ الاستكانة والتَّسليم أمرٌ غير مقبول قطعيًّا ولا يجوز أن يسوَّغ أبداً، فمن واجب الأمَّة؛ أي أمَّة أن تحمي ذاتها وتدرأ عنها الأخطار التي

٢٨ ـ بنيامين باربر: **عندما تأكل العولمة الدَّولة الوطنيَّة من فوق**. م.س.

تهدَّدها أيًّا كانت، ولا يجوز أن يكون ذٰلكَ بالانغلاق والتَّقوقع، كما لا يكون بالانفتاح غير المشروط ولا المدروس، بل لنقل بالتَّفريط. لأنَّ النَّتائج النَّاجمة عن ذٰلكَ، وإن لم تهدِّد وجود الأمَّة، فإنَّها جدُّ خطيرةٍ علىٰ البنية الفكريَّة والثَّقافيَّة والاجتماعيَّة... وقد تترك من الآثار السَّلبيَّة ما يحتاج إلىٰ عقودٍ مديدةٍ لمحوها أو تجاوزها، و«علىٰ قاعدةٍ من هٰذا القلقِ الجدِّي، شهدنا منذ سنواتٍ خمس نوعاً من حربٍ حقيقيَّةٍ، كانت الثَّقافة فيها مع منتجاتها، هي موضوع المعركةِ وحلبتها. ولم يكن التَّعبيرُ الأَوحد عن هٰذه الحرب، خلال المناقشات والسِّجالات[٢٩] المرافقة لمفاوضات (الجات) الأَخيرة وإقرار الاتِّفاقات بشأنها، تمسُّك بعض البلدان كفرنسا وكندا مثلاً بما سمِّيَ بـ (الاستثناء الثَّقافي ـ Exception Culturelle)»[٣٠].

وكذٰلكَ الأمر، كما يحاول **روثكوبف** أن يصوِّره بتهكمٍ، فقد «أصدرت كلٌّ من فرنسا وكندا قوانين تحظر نشر ونقل مواد أجنبية ـ أي أَمريكيَّة بالطَّبع ـ مأخوذة من الآثار الصِّناعيَّة عبر حدودها إلىٰ بيوت مواطنيها. وليس من الغريب أن تقوم الحكومات المركزيَّة؛ إيران الأصوليَّة، والصِّين الشِّيوعيَّة، وسنغافورة ذات تجربة التَّخطيط النَّاجحة، بالسَّعي بقوَّة لتقييد وصول برامج [الحاسوب] إلىٰ مواطنيها، وهدفها الصَّريح هو إبعاد ما يبثُّه الأمريكيُّون من وجهات نظرٍ سياسيَّة، وعادات، وتلوث أخباري، كما يقال في أنباء عدَّة من الشَّرْق الأوسط»[٣١].

إنَّ هٰذا السُّلوك القهريَّ علىٰ عدم صوابيَّته المطلقة قد يكون ضروريًّا، ومهمًّا، ولٰكنَّه يجب أن يكون واعياً عندما يمارس، ذلك أنَّ إغلاق الأبواب والمنافذ أشدُّ خطراً من فتحها، وما حدث في المنظومة الاشتراكيَّة عبرة لمن يعتبر.

---

٢٩ ـ في الأَصل: السجلات، ولعلَّ الصَّواب ما أَثبتناه.

٣٠ ـ ميشيل إدَّه: **مستقبلنا العربي وتحدِّيات العولمة**. ص ١٦.

٣١ ـ دافيد روثكوبف: **في مديح الإمبرياليَّة الثَّقافيَّة**. ص٣١.

إنَّ أهمَّ ما نطلبه هنا هو الوعي، الوعي الحقيقي لا الوعي الزَّائف. فالوعي هو الذي يحقِّق الانتماء. ويزداد هٰذا المطلب إلحافاً عندما نقرأ التَّساؤل الذي يطرح ذاته بإلحاحٍ هنا هو كما يقدِّمه **هنتنجتون**: «هل يتعيَّنُ علىٰ المجتمعات غير الغَرْبيَّة، إذا أرادت أن تتحدَّث، أن تتخلَّى عن ثقافاتها الخاصَّة وتتبنَّى عناصر الثَّقافة الغَرْبيَّة الجوهريَّة؟»[٣٢].

التَّساؤل في صورته بريء ولٰكنَّهُ في أبعاده الدَّلاليَّة خطيرٌ، فهو يعني في أقرب الاحتمالات أنَّ الولايات المتَّحدة ليست مضطرةً لاستفزاز مشاعر الشَّرْق بمحاولة فرض ثقافتها الخاصَّة، ولا يجوز لها ذٰلكَ، أي عليها تحقيق سيطرتها وسيادتها علىٰ هٰذه المنطقة بمحاولاتٍ أُخْرَىٰ، وأنماطٍ أُخْرَىٰ من السَّيطرة، كيف لا **وهنتنجتون** هو صاحب مشروع صراع الحضارات.

إذن المطلوب منَّا أكبر بكثيرٍ مما نتوقَّع، وعلينا أن نتوقَّع أنماطاً جديدةً وكثيرةً للصِّراع بَيْنَ الشَّرْق والغَرْب، ومشاريع جديدة يتفتَّق عنها العقل الغَرْبي لاستمرار السَّيطرة علىٰ الشَّرْق.

٣٢ . صامويل هانتغتون: **الغَرْب ... إنَّه فريدٌ ولكنَّه ليس كلِّيًّا جامعاً**. ص ٦١.

الفصل الثاني

تاريخية الحقد الغربي على الشرق

الصِّراع بَيْنَ الشَّرق والغرب تاريخٌ طويلٌ عريضٌ معقَّدٌ من جانبٍ وواضحٌ من جانبٍ. وإذا كان من السَّهل جمع الغرب كلَّه تحت مسمًّى واحدٍ هو الغرب، الجمع من ناحية العقليَّة والأخلاق والرَّغبات والأهداف فيما يخص الصِّراع بَيْنَ الشَّرق والغرب، فإنَّهُ من الضَّروري التَّمييز بَيْنَ شرقين قبل الإسلام، وشرقين بعد الإسلام في إطار الصراع بَيْنَ الغرب والشَّرق.

قبل الإسلام الشَّرق شرقان شرق المنطقة العربيَّة من الصَّحراء الليبية ورُبَّما المغرب إلىٰ إيران، وشرق ما بعد المنطقة العربيَّة. شرق المنطقة العربيَّة قبل الإسلام هو هدف الصِّراع وموضوعه.

بعد الإسلام أيضاً هناك شرقان شرقٌ مسلمٌ وشرقٌ غير مسلمٍ. الشَّرق المسلم هو بؤرة الاستهداف الغربي والحقد الغربي والعداء الغربي. والشَّرق المسلم ذاته شرقان الشَّرق العربيُّ والشَّرق غير العربيِّ. وهنا أيضاً فإنَّ الشَّرق العربيَّ وخاصَّة الشَّرق المستهدف من الغرب قبل الإسلام هو أيضاً هدف الحقد والعداء الغربي.

تاريخٌ يعيد نفسه مهما اختلفت مضامين الشَّرق وعقائده وأخلاقه ومهما اختلفت عقائد الغرب وقيمه وأخلاقه. وعلىٰ أيِّ حالٍ ليس ثَمَّة

اختلاف كبير مع تغير الزَّمان في أخلاق وطبائع وعقليَّة كل من الشَّرق والغرب منذ ما قبل الأديان إلىٰ الآن. قبل أن يكون الغرب مسيحيًّا هٰذه عقليته وأخلاقه وطبائعه، وقبل المسيحية والإسلام هٰذه أخلاق الشرق وعقليته. مع مراعاة طوري التَّحضُّر والتَّخلُّف وما يختص به فيهما كل فريق من أخلاق وعقلية.

المسألة ليست مسألة رأي، هي مسألة حقائق تاريخيَّة، فمن لا يراها فهٰذه مشكلته، ومن لا يقتنع بها فهٰذه مشكلته، ولٰكنَّ عدم اقتناعك بها لا يعني أنك علىٰ صواب ولا أنَّها خطأ، إنَّهَا مشكلة بصرك وبصيرتك العاجزتين عن رؤية الحقيقة. الحقائق التاريخية المؤكدة لهذه الحقيقة أكثر من أن تعد وأعقد من أن تحصى، وفي بعض صفحات هٰذه الكتاب نماذج غير قليلة منها في هٰذا الفصل أو ذاك، وهي ليست إلا نماذج قليلة من مسلسل طويل عريض.

لا أريد أن أطيل، والكلام في هٰذا الموضوع طويل جدًّا أساساً. إذا عدنا إلىٰ ما قبل الإسلام والمسيحية ونظرنا في تاريخ العلاقة بَيْنَ الإمبراطورية الإغريقية ثمَّ الرومانية في علاقتها مع الشَّرق وجدنا أنفسنا أمام ما نراه اليوم من تعامل حاقد إلىٰ أبعد الحدود، وعلىٰ من يريد معرفة التَّفاصيل الرجوع إلىٰ كتب التاريخ المناسبة ففيها الكثير، وفي هٰذا الفصل والكتاب بعض منها.

والآن، كيف تعامل المسلمون مع الغرب عقب تمدد الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة من أيام الأمويين إلىٰ نهاية الخلافة العثمانيَّة؟

وفي الوقت ذاته كيف تعامل الغربيون مع الشَّرق منذ بدء الاستعمار الأوروبي في القرن الثامن عشر، وحَتَّىٰ ما قبله علىٰ نحو محدود، وإلىٰ يومنا هٰذا؟

الغربيون أنفسهم الذين اقتربوا من الإنصاف لم يستطيعوا إلا أن يعترفوا بأنه لم يعرف التَّاريخ فاتحاً وغازياً ومحارباً أرحم من المسلمين. هٰذه حقائق تاريخيَّة لا نختلقها ولا يمكن إنكارها مهما اختلفت وجهات النَّظر...

أمَّا سياسة الغربيين تجاه الشرق فحدِّث ولا حرج عن الممارسة الحاقدة التي تتجاوز التَّصديق أحياناً كثيرةً، وكثير منها موثق في كتب الغربيين ومذكراتهم وحكاياتهم. وقد تحدثت عن نماذج كثيرة في كثير من كتبي يمكن الرجوع إليها لمن أراد المتابعة من علىٰ سبيل المثال:

١. أعاجيب السياسة الأمريكية؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
٢. الأمم المتحدة بين الاستقلال والاستقالة والترميم . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.
٣. انهيار أُسطورة السَّلام؛ مصير السَّلام العربي الإسرائيلي . الطبعة الأولى: مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦م. الطبعة الثانية: دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٣م.
٤. انهيار إنسانية الإنسان . دار العالم العربي . عمان . ٢٠١٥م.
٥. انهيار مزاعم العولمة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعها . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.
٦. بشرية عمياء عرجاء؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.
٧. الثورة السورية والحلول التهريجية . دار العالم العربي . عمان . ٢٠١٥م.
٨. الثورة السورية والمؤامرة الكونية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.

٩. العالم في مواجهة الإسلام . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
١٠. العدوان الأمريكي علىٰ سوريا؛ حقيقة الموقف الأمريكي من الثورة السورية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
١١. العدوان الروسي علىٰ سوريا؛ مشروع إبادة الشعب والحضارة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
١٢. الغرب الجاني علىٰ نفسه . دار العالم العربي . عمان . ٢٠١٥م.

وهي ليست الكتب الوحيدة ولا الأبحاث الوحيدة التي تحدَّثت في هٰذا الموضوع، هناك عشرات بل مئات الكتب التي يمكن الرجوع إليها والبحث عن عما يكشف عن شواهد وأمثلة وممارسات غربية حاقدة من قبل الغرب ضدَّ الشَّرق عامَّةً وضدَّ العرب والمسلمين خاصَّةً.

لن أعود هنا إلىٰ تاريخ هٰذا الحقد الغربي وأكتفي بما سيأتي من فقرات هٰذا الفصل مع ما ورد في فصول الكتاب الأُخْرَىٰ. هٰذا الفصل الذي يتناول تاريخية العقلية العدائية الغربية تجاه العرب والمسلمين والإسلام وحَتَّىٰ ما قبل ذٰلكَ في بعض الأحيان، وهو فيما سيأتي منه مقتطفات من كتابي: انهيار أوهام فوبيا الإسلام الذي سيصدر قريباً.

أوهام ما بعد الحرب الباردة

غالباً يصعب القول بغير أنَّ فوبيا الإسلام بوصفها اصطلاحاً أخذ في الظُّهور والنُّمو عقب انهيار الاتحاد السُّوفيتي وانتهاء الصِّراع بَيْنَ المعسكرين الرَّأسمالي والاشتراكي...العدوُّ القادم... ثَمَّة قولٌ شهيرٌ وخطيرٌ نسب قوله إلىٰ الأمين العام لحلف الناتو إثر انهيار الاتحاد السُّوفيتي تصدَّر صحيفة النِّيويورك تايمز في تلك الفترة، القول متداولٌ ومشهورٌ

جـدًّا، ذكـره الـدكتور **أحمـد قطريـة** أسـتاذ الأدب الأمريكـي في جامعـة الملـك سـعود في نـدوة «العـرب والمسـلمون في المخيِّلـة الغربيَّـة» قـال: «عنـدما سـقط الاتحـاد السُّـوفيتي رأيـت علـىٰ غـلاف مجلَّـة التَّـايم غلافـاً أزعجـني كثـيراً يقـول العـدو القـادم هـو الإسـلام بسـقوط الاتحـاد السُّـوفيتي». يتابع: «قالوا نحن بحاجة إلىٰ عدوٍّ لنستمرَّ ورشحَّوا الإسلام»[٣٣].

التَّحليل منطقيٌّ وواقعي في حقيقة الأمر. في صراع الحضارات وديمومتها تحتاج الإمبراطوريَّة دائماً إلىٰ عدوٍّ كي تستمرَّ في الوجود. وجود العدو ضرورةٌ عسكريَّةٌ وسياسيَّةٌ واقتصاديَّةٌ واجتماعيَّةٌ ونفسيَّةٌ تمارسها الدول والإمبراطوريات شعوريًّا ولا شعوريًّا... من دون العدوِّ الخارجيِّ تفقد الحضارات تماسكها وقوَّتها وتتآكل بسرعةٍ، ولذلك إن لم يكن لها عدوٌّ تصنع عدوًّا.

من هٰذا الباب يمكن فهم أنَّ انهيار الاتحاد السُّوفيتي فرض علىٰ الغرب البحث عن عدوٍّ جديدٍ. فكان الإسلام والمسلمون. ولٰكن هل فعلاً بحثوا فكان الإسلام والمسلمون هو العدوَّ البديل، أو العدوَّ الجديد؟ **أحمد قطرية** ذاته علَّق علىٰ ذٰلكَ قائلاً: «لم يجدوا إلا الإسلام ليختاروه عدواً»[٣٤]. والسُّؤال الذي يفرض ذاته من جديدٍ هنا هل هٰذه هي الحقيقة؟ هل لم يعد لهم عدو فاختاروا الإسلام؟

---

[٣٣] . الدكتور أحمد قطرية: **ندوة العرب والمسلمون في المخيّلة الغربية؛ بحث في الأصول التاريخية.. واستعراض لمسببات الظاهرة واقتراحات حول كيفية تقديم صورة إيجابية للعرب والمسلمين للآخر** . ندوة صحيفة الجزيرة الثقافية . الرياض . السعودية . شباط/ فبراير ٢٠٠٧م.

[٣٤] . الدكتور أحمد قطرية: **ندوة العرب والمسلمون في المخيّلة الغربية؛ بحث في الأصول التاريخية.. واستعراض لمسببات الظاهرة واقتراحات حول كيفية تقديم صورة إيجابية للعرب والمسلمين للآخر** . ندوة صحيفة الجزيرة الثقافية . الرياض . السعودية . شباط/ فبراير ٢٠٠٧م.

مطلقاً، لهٰذا الكلام غير صحيحٍ أبداً. الرِّوائي المصري اليساري الشَّهير **جمال الغيطاني** في حديثٍ خاصٍّ في أوائل تسعينيات القرن العشرين تحدَّث عن مؤتمرٍ لليسار العالمي انعقد في موسكو قبل ذٰلكَ بنحو عشر سنوات أي في الثَّمانينيات، وفوجئ بأنَّ الجمع مجمعٌ علىٰ كيفيَّة محاربة الإسلام، أما الإمبرياليَّة التي تداعوا لمحاربتها فلا مكان لها علىٰ خريطة الأعداء... وكأنَّ مهمة اليسار وواجبه الوحيد هو محاربة الإسلام...

هنا تبرز صورة هٰذا اليوم الذي نعيشه تماماً؛ الغرب اختار الإسلام عدوًّا جديداً له، والإسلام هو عدوُّ عدوه الذي انهزم وانهار!! وكأنَّ الغرب كان صديق الإسلام والمسلمين فيما قبل، وهٰذا وهم محض لأنَّ عداء الغرب للإسلام والمسلمين سابقٌ علىٰ وجود السوفييت والاشتراكيَّة والشِّيوعيَّة والحرب الباردة والدَّافئة بمئات السِّنين الكثيرة، وهٰذا ما نحن مقبلون علىٰ توضيحه وتبيانه في الفقرات التَّالية من هٰذا الباب.

لا أستطردُ هنا في ذٰلكَ فذٰلكَ أمره طويلٌ وفيه الكثير الكثير من الكلام والقول والتَّفاصيل. ولٰكن في العقود الأخيرة من القرن اتخذت الأمور منحًى جديداً لتطوراتٍ جديدةٍ رُبَّما لم تكن في الحسبان. تمثَّلت تلك التطورات في تزايد المدِّ الإسلامي في أوروبا وتزايد أعداد الأوروبيين الذين يعتنقون الإسلام. فتحولت المعركة من منحًى إلىٰ منحًى، بل الأصحُّ صار الغرب أمام معركة واحدةٍ علىٰ جبهتين:

أولاً: جبهة محاربة الإسلام ذاته بحامله العربي ومنع قيام أيِّ وحدةٍ عربيَّةٍ أو إسلاميَّةٍ، ولا أستطرد في الشَّواهد أكتفي بواحدٍ فقط من كثيرٍ جدًّا. يقول **مورو بيرجر** في كتابه العالم العربي المعاصر: «إنَّ الخوف من العرب، واهتمامنا

بالأمة العربيَّة، ليس ناتجاً عن وجود البترول بغزارة عند العرب، بل بسبب الإسلام. يجب محاربة الإسلام، للحيلولة دون وحدة العرب، التي تؤدِّي إلىٰ قوَّة العرب، لأنَّ قوَّة العرب تتصاحب دائماً مع قوَّة الإسلام وعزَّته وانتشاره. إنَّ الإسلام يفزعنا عندما نراه ينتشر بيسر في القارة الأفريقيَّة»[٣٥].

ثانياً: جبهة مواجهة المدِّ الإسلاميِّ في أوروبا. وهنا ظهرت فوبيا الإسلام بالصِّيغة المعاصرة؛ المخاوف من أسلمة أوروبا. هٰذه المخاوف التي ما زالت الشِّعار الأبرز الذي يحمله اليمين الأوروبي علىٰ امتداد القارة الأوروبيَّة.

الخوف من أسلمة أوروبا يقوم تأسيساً علىٰ فرضيَّةٍ واحدةٍ هي أنَّ الإسلام سيءٌ، وباءٌ، يجب تجنيب الشَّعب الأوروبي منه. ويزاد أمر المفارقة غرابة عندما نجد أنَّهُ لا توجد أبداً أي مخاوف من أيِّ غزوٍ دينيٍّ من أيِّ نوع كالبوذيِّ أو الزَّرادشتيِّ أو الإيزيدي أو غير ذٰلكَ... الإسلام وحده هو الذي يتخوَّفون منه ولا يريدون له أن ينتشر...

هم يرون الإسلام ينتشر بسرعةٍ وبأعدادٍ كبيرةٍ ولٰكنَّهُم لا يسألون أنفسهم لماذا ينتشر الإسلام بسرعة؟ وهم يعترفون بذٰلكَ منذ عشرات السِّنين، وهٰذا هو **هانوتر** وزير خارجيَّة فرنسا سابقاً يقول: «لا يوجد مكان علىٰ سطح الأرض إلا واجتاز الإسلام حدوده وانتشر فيه، فهو الدِّين الوحيد الذي يميل النَّاس إلىٰ اعتناقه بشدَّةٍ تفوق أيَّ دين آخر[٣٦]».

أيعقل أن يكون الإسلام وباءً أو سيئاً بالطَّريقة التي يصوِّرها وينتشر بهٰذه السُّرعة والأعداد الكبيرة؟!

---

[٣٥] . الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي – ص ١٩. نقلا عن: قادة الغرب يقولون.

(٣٦) . الفكر الإسلامي الحديث، وصلته بالاستعمار الغربي، ص ١٨. نقلا عن: قادة الغرب يقولون.

إذن الحرب علىٰ الإسلام، ومعاداة الإسلام قائمة علىٰ تصوُّرات أُخْرَىٰ وذهنيَّة محدَّدة لا تريد الإسلام مهما كانت طبيعته. لا أطيل في الجواب ولا أستطرد فيه، أكتفي بقول **أشعيا بومان** في مقال نشره في مجلة العالم الإسلامي التَّبشيريَّة إذ قال: «إنَّ شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر علىٰ العالم الغربي من الإسلام، لهٰذا الخوف أسباب، منها أنَّ الإسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عددياً، بل إنَّ أتباعه يزدادون باستمرار، من أسباب الخوف أنَّ هٰذا الدين من أركانه الجهاد(٣٧)».

هٰذا الجهاد الذي يحاربونه ويخافون منه هو الأرحم والأكثر رفقاً وإنسانيَّة بَيْنَ كلِّ عقائد الشُّعوب وهٰذا ما أكَّده المؤرخ الفيلسوف الفرنسي المسيحي **چوستاف لوبون** إذ قال قبل نحو مئة سنة: «لم يعرف التَّاريخ فاتحاً أو غازياً أرحم من الإسلام والمسلمين».

أوهام الظرف الراهن

من الأوهام السَّائدة أيضاً أنَّ العداء للإسلام والإسلاموفوبيا نشأت فقط في الآونة الأخيرة اللاحقة علىٰ انهيار الاتحاد السُّوفيتي أو بعد بقليل أو كثيرٍ خاصَّة الأحداث الأخيرة في البلدان الإسلاميَّة، والحقيقة هي أنَّ «الأحداث المتلاحقة في منطقة الشَّرق الأوسط حرَّكت ماكينة الإسلاموفوبيا في الإعلام الغربي من جديد»[٣٨]، حركتها وقدَّمت لها الوقود الجديد ولم تبتدعها أو تخترعها أو تختلقها.

---

(٣٧) . عمر فروخ ومصطفى الخالدي: **التبشير والاستعمار** . ص ١٣١.

[٣٨] . برنامج المرصد: **عودة الإسلاموفوبيا.. وأطلس مستعد للقتال** . الجزيرة نت . برنامج المرصد . الاثنين ١٤٣٦/٣/١٤ هـ – الموافق ٢٠١٥/١/٥م.

وإذا كان «واقع الإرهاب الدَّولي والدَّاخلي في بعض الدُّول الأوروبيَّة يعطي شرعيَّةً لهٰذه التَّظاهرات»[٣٩]، أي التَّظاهرات المناهضة للإسلام والمسلمين في أوروبا، كما ترى الخبيرة الاجتماعيَّة الفرنسيَّة **كاثرين ويتول** فبماذا وكيف نُفسِّرُ أمثالها ونظائرها وفوبيا الإسلام وتشويه الإسلام علىٰ الأقل في عشرات السِّنين السَّابقة في القرن العشرين؟

ويعتقد بعضٌ غير قليلٍ، مثل **نور الدين السعيدي**، وهو من إحدى المنظَّمات المؤيِّدة لنضال الشَّعب الفلسطيني، في حديثه للجزيرة نت، «أنَّ جذور الإسلاموفوبيا ظهرت في سياق الوضع الاستعماريِّ الحاليِّ»[٤٠]. الوضع الاستعماريُّ الحاليُّ فيما يفترض ويبدو هو ما بعد احتلال العراق أو رُبَّما أفغانستان في الحدِّ الأبعد، لأنَّهُ من غير المتَّسق مع التَّعبير الذَّهابُ إلىٰ أنَّهُ يقصد الاستعمار التَّقليدي في مطالع القرن العشرين في العالم العربي الذي بدأ أصلاً منذ القرن السَّابع عشر في العالم الإسلامي وغيره. ولهٰذا وهمٌ خطيرٌ يقود إلىٰ حرف الوعي عن السِّياق الحقيقيِّ لظاهرة الإسلاموفوبيا، ويجعل المسلمين يتعاملون معها بسطحيَّةٍ وغباءٍ أيضاً.

المحللون الخطِّيون، أعني السَّطحيين، السَّاذجين، الباردين ينظرون إلىٰ الأمر من الزَّاوية المنطقيَّة الخطيَّة السَّحطيَّة فكثيرون يحلِّلون ظاهرة الإسلاموفيوبيا علىٰ أنَّها ردَّة فعلٍ علىٰ القاعدة مثلاً، أو ردَّ فعلٍ علىٰ التَّردِّي الاقتصاديِّ الغربيِّ كما

---

[٣٩] . متابعات: **أسلمة الغرب... العقدة الأوروبية الجديدة** . موقع إيلاف . الخميس ٨ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٥م.

[٤٠] . لبيب فهمي: **المنتدى الأول لانتشار ظاهرة الإسلاموفوبيا في بروكسل** . الجزيرة نت . الاثنين ١٤٣٦/٢/٢٢ هـ – الموافق ٢٠١٤/١٢/١٥م.

يرى **أحمد جاب الله** مدير المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانيَّة إذ ردَّ الاعتداءات علىٰ المسلمين والمساجد في السُّويد (ذات الرَّخاء الاقتصادي) «إلىٰ لأزمة الاقتصاديَّة التي تجعل الشُّعوب تنكفئ وتعتبر الأجنبي المسؤولَ عن تراجع وضعه الاقتصادي، فيستغل اليمين الفرصة ليرفع من وتيرة العداء للأجانب في سبيل الحصول علىٰ مكاسب انتخابيَّة»[٤١]. علىٰ أنَّهُ لولا الأزمة الاقتصاديَّة لما استجاب أحد، ولما استطاع اليمين تحريض النَّاس... وعلىٰ أساس أنَّ فوبيا الإسلام والتَّحريض علىٰ الإسلام وليدة السَّاعات السَّابقة علىٰ حرق المساجد!! هٰذه الطَّريقة في التَّحليل تحرف الفهم عن الاتجاه الصَّحيح وتجعل النَّاس تركن إلىٰ تفسيرٍ خرافيٍّ لا أساس له من الصِّحَّة؛ صحيح الظَّاهر ولٰكنَّهُ فارغ المضمون، فيقنعون بحقيقةٍ زائفةٍ مفادها أنَّ هم السَّبب في الحقد الغربيِّ عليهم، وأنَّ الغرب بريءٌ لا ذنب له.

الإسلاموفوبيا وتاريخية الحقد الغربي

أودُّ أن أبيِّن هنا ثانيةً أني في الأساس كنت أنوي تتبع تاريخيَّة فوبيا الإسلام علىٰ نحو موسَّعٍ قليلاً لتعذُّر التَّتبع الشامل، ولٰكنِّي علىٰ معرفتي بكثرة المعطيات والمعلومات في هٰذا الشَّأن فإنِّي فوجئت بأنَّهَا أكثر مما توقَّعتُ، وتستحقُّ وقفةً أكبر مما خطَّطت. لننطلق من الآخر، من اليوم بنظرة خاطفة تمهيديَّة لنعود إلىٰ الوراء بنظرة خاطفة أيضاً لإلقاء ضوء علىٰ الحقيقة لا للكشف عن تفاصيلها.

ترصد الغرب للإسلام تاريخيٌّ وليس بجديد أبداً. قد يصعب تحديد نقطة بدء لذٰلك. ولذٰلك من المتعذَّر العودة إلىٰ نقطة أو مرحلة تاريخيَّة تقول فيها من هنا بدأ ترصُّد الغرب للإسلام ومحاربته. وهنا يبرز **أيوجين روستو** رئيس قسم التَّخطيط في

---

[٤١] . برنامج الواقع العربي: **عرب أوروبا وجديد الإسلاموفوبيا** . الجزيرة نت . برنامج الواقع العربي . السبت ١٤٣٦/٣/١٢ هـ – الموافق ٢٠١٥/١/٣م.

وزارة الخارجيَّة الأمريكيَّة ومساعد وزير الخارجيَّة الأمريكيَّة، ومستشار الرَّئيس **جونسون** لشؤون الشرق الأوسط حَتَّىٰ عام ١٩٦٧م يقول: «يجب أن ندرك أنَّ الخلافات القائمة بَيْنَنا وبَيْنَ الشُّعوب العربيَّة ليست خلافاتٍ بَيْنَ دولٍ أو شعوبٍ، بل هي خلافاتٌ بَيْنَ الحضارة الإسلاميَّة والحضارة المسيحيَّة»[٤٢].

ويتابع قائلاً: «إنَّ الظُّروف التَّاريخيَّة تؤكد أن أمريكا إنَّمَا هي جزءٌ مكمِّلٌ للعالم الغربيِّ؛ فلسفته، وعقيدته، ونظامه، وذَلكَ يجعلها تقف معاديةً للعالم الشَّرقيِّ الإسلاميِّ، بفلسفته وعقيدته المتمثِّلة بالدِّين الإسلاميِّ، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هٰذا الموقف في الصَّف المعادي للإسلام وإلىٰ جانب العالم الغربيِّ والدَّولة الصهيونيَّة، لأنَّهَا إن فعلت عكس ذَلكَ فإنها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسَّساتها. إن **روستو** يحدد أن هدف الاستعمار في الشَّرق الأوسط هو تدمير الحضارة الإسلاميَّة، وأن قيام إسرائيل، هو جزء من هٰذا المخطَّط، وأنَّ ذَلكَ ليس إلا استمراراً للحروب الصَّليبيَّة»[٤٣].

ما يختصر الحقيقة بأبلغ العبارات وأوجزها وأوضحها ليس تصريحاً واحداً أبداً... مئات التَّصريحات المعاصرة وحَتَّىٰ القديمة يختصر لنا كل واحدٍ منها وحده حقيقة فوبيا الإسلام ويعبر عنها بوضوح لا لبس فيه، فأكثر الغربيين أنفسهم يؤكِّد أنَّ «ظاهرة العداء للإسلام في أوروبا تجلٍّ لصراعٍ دينيٍّ وثقافيٍّ ممتدٍ عبر العصور»[٤٤].

---

[٤٢]. المؤامرة ومعركة المصير – صفحات ٨٧-٩٤. نقلاً عن قادة الغرب يقولون.

[٤٣]. المؤامرة ومعركة المصير – صفحات ٨٧-٩٤. نقلاً عن قادة الغرب يقولون.

[٤٤]. محمد فال ولد المجتبى: **الإسلاموفوبيا القاتلة.. على نفسها جنت أوروبا**. الجزيرة نت. الخميس ١٤٣٢/٨/٢٧ هـ - الموافق ٢٠١١/٧/٢٨ م.

جورج بوش الابن في أوَّل خطاب له عقب أحداث أيلول ٢٠٠١م أعلنها حرباً صليبيَّة. هٰذا الإعلان وحده مؤشِّرٌ صريحٌ علىٰ عمق جذور الحقد الدِّيني التي لا علاقة لها بالمصالح الاقتصاديَّة ولا السِّياسيَّة، وقد حالوا مراراً ترقيع هٰذا التَّصريح وتليينه، ولٰكنَّ ما يحدث أنَّ تصريحاتٍ أشدَّ وطأةً تخلفُ سابقاتها دائماً.

إذا كان **بوش** عاد بضع مئات من السِّنين إلىٰ الوراء فإنَّ **رونالد ترامب** تجاوز كلَّ المنطق وكلَّ التَّاريخ وأعاد الثَّأر المسيحي من الإسلام إلىٰ ما قبل الإسلام بمئات السِّنين، ومن ثمَّ أعاد الإسلاموفوبيا أيضاً إلىٰ ما قبل الإسلام بمئات السِّنين، ففي أحد خطاباته في أواخر آذار/ مارس ٢٠١٦م قال مخاطباً الشَّرق الأوسط: «**لن أنسى صلبكم للمسيح**». المسلمون حسب **ترامب** صلبوا المسيح قبل الإسلام بستمئة سنة!!

هنا تقف اللغات مصلوبةً علىٰ جدارن اللامنطق بمسامير العبث. ماذا يمكن أن نقول بعد هٰذا الكلام؟

منطقيًّا من المحال أن نجد أيَّ وثيقةٍ أو كلامٍ في الإسلاموفوبيا قبل الإسلام، ولٰكن مع ذٰلكَ فإنَّ **ترامب** ألقى ضوءاً علىٰ حقيقة أنَّ الإسلاموفوبيا فعلاً قد سبقت ظهور الإسلام عندما حرَّف النصارى الإنجيل لمحو البشارة **بمحمد صلى الله عليه وسلم** من الإنجيل، وقد كان ذٰلكَ قبل الإسلام بنحو أربعمئة سنة

يرجع أول ذكرٍ لتعدُّد الأناجيل إلىٰ القديس **جاستن** الذي توفي قتلاً سنة ١٦٥ميلاديَّة، ثمَّ بعده علىٰ يد «**تاتيان** الذي جمع الأناجيل الأربعة في كتاب

واحدٍ سمَّاه (الدياطسرن) في الفترة ١٦٦ . ١٧٠ ميلاديَّة»[٤٥]. وعندما نعلم أن الأناجيل الأربعة الجديدة حينها تجمع علىٰ شطب بشارة الرَّحمن جلَّ وعلا **بمحمد عليه الصلاة والسلام** فلا يمكن إلا القول بأنَّ الحرب علىٰ الإسلام قد بدأت منذ ذَلكَ الحين... وأنَّها بدايات الإسلاموفوبيا؛ بدأت الإسلاموفوبيا قبل الإسلام بنحو أربعمئة سنة. ومع القرن الهجري الأول بدأت تتشكِّل ملامح الإسلاموفوبيا وتأخذ أبعادها علىٰ مدار القرون التَّالية من دون انقطاع أو حَتَّىٰ فتور. ويمكن موافقة الدكتور **علي عودة** بأنَّ عقيدة الغرب تجاه الإسلام «القائمة علىٰ أساس التَّلفيق والاختراع لتصوير الإسلام في أشكال مشوهة وبشعة هي عقيدة غربيَّة موروثة تشكلت ونمت خلال ثمانية قرون منذ القرن الأول وحَتَّىٰ نهاية القرن الثامن الهجري. وانتقلت هٰذه العقيدة كاملة متماسكة عبر القرون لتصل إلىٰ القرون الحديثة والمعاصرة. وأصبحت أشبه بالمستنقع الآسن العَفِن الذي تغرف منه وسائل الإعلام الغربيَّة»[٤٦].

الطَّريف غير الغريب أنَّ النَّصارى الشَّرقيين الذين عاشوا في أكناف الدَّولة الإسلاميَّة ونهلوا من معينها وعلومها وتنعَّموا بنعيمها تابعوا هٰذه الحملة التَّخويفيَّة من الإسلام والتَّشويهيَّة والافترائيَّة علىٰ الإسلام وعلىٰ الرَّسول الكريم وعلىٰ القرآن الكريم. ومنهم علىٰ سبيل المثال **يوحنا الدمشقي**[٤٧] الفيلسوف الشَّهير

---

[٤٥] . خالد وداعة: **من أدلة تحريف الإنجيل** . موقع شبكة الألوكة . الخميس ١٤٣٢/٦/٢٨ هـ – الموافق ٢٠١١/٦/١م.

[٤٦] . الدكتور علي بن محمد عودة: **العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام** . العرب نيوز . ١٨ حزيران/ يوليو ٢٠١٦م.

[٤٧] . يوحنا الدمشقي (٥٥ – ١٣١هـ / ٦٧٥ – ٧٤٩ م) من نصارى الشام، وُلدَ وعاش في العصر الأموي، وتضلع في اللاهوت، وكتب كتباً كثيرة.

الذي قدَّره المسلمون أكبر تقدير واحترموه أيَّما احترام «وضع كتاباً باللغة اليونانيَّة بعنوان الهرطقات. وأفرد فيه فصلاً عن الإسلام أطلق عليه اسم (هرطقة الإسماعيليين) ويقصد بالإسماعيلين العرب من أبناء **اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام**. وهٰذا الفصل شديد الطَّعن، اتهم فيه **يوحنا** العرب بالهرطقه والضَّلال والخرافة، واعتبرهم فرقةً نصرانيَّةً متهرطقةً، وزعم أنَّ **محمداً عليه الصلاة والسَّلام** كان رسولاً زائفاً ادَّعى النَّبوة زمن الإمبراطور **هرقل**، بعد أن قرأ العهد القديم والعهد الجديد وتعلَّم من راهبٍ أريوسي فتظاهر بالتَّقوى حَتَّىٰ استمال العرب إليه وأخبرهم أنَّهُ تلقَّى كتاباً من السَّماء، وقدّم فيه تلك الشَّرائع المضحكة ـ علىٰ حدِّ قوله ـ التي تسمَّى بالإسلام»[٤٨]. وغير ذٰلكَ كثير من الإساءات والفبركات والتَّشويهات.

في أواخر القرن الثَّاني الهجري/ أواخر القرن الثامن وأوائل التَّاسع الميلادي، الفترة الموازية لحياة **يوحنا الدِّمشقي**، ظهرت في أحد الأديرة الشَّماليَّة الإسبانيَّة ما اشتهرت تحت عنوان المقالة الإسبانيَّة لكاتبٍ مجهولٍ أغلب الظَّن أنَّهُ نصرانيٌّ شرقيٌّ ورُبَّما نصرانيٌّ مستعربٌ كما قال ناشر الرسالة، وهي عبارة عن نصٍّ هجوميٍّ بذيءٍ علىٰ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام عُرفت باسم المقالة الأسبانيَّة عن **محمد عليه الصلاة والسلام** «تصوِّر **النبي عليه الصلاة والسلام** بصورةٍ مجافيةٍ للذَّوق ومعاكسةٍ لصفاته، فتزعم ـ زوراً وبهتاناً ـ أنَّهُ كان كاذباً مبتدعاً شهوانياً، وأنه دعا عربه المتوحشين إلىٰ أن يتخلُّوا عن الوثنيَّة، وأن يعبدوا إلها ماديًّا في السَّماء علىٰ شكل كرةٍ ماديَّةٍ، وتزعم هٰذه المقالة الزَّائفة أنَّ **إبليس** ظهر **لمحمد**

---

[٤٨] . الدكتور علي بن محمد عودة: **العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام**. العرب نيوز. ١٨ حزيران/ يوليو ٢٠١٦م.

عليه الصلاة والسلام مدعياً أنَّهُ الملك **جبريل**، وأخبره أنَّ الرَّب أرسله ليبشر العرب بما كان قد سمعه في مدارس المسيحيين ويدعوهم إلىٰ عبادة ذَلكَ الإله المادي في السَّماء وهجر عبادة الأوثان»[٤٩]. وتتجاوز إلىٰ إساءات يعفُّ اللسان عن ذكرها ويقشعرُّ البدن منها.

لقد انتشرت هٰذه الرِّسالة انتشار النَّار في الهشيم بَيْنَ نصارى الأندلس وأوروبا، ومن شدَّة ما فيها من الشَّحن ضدَّ الإسلام والمسلمين أدَّت إلىٰ تشكيل حركة استشهاديَّة تجاهر بستم الرَّسول وتسفيه الإسلام في قرطبة الأمر الذي أدَّىٰ إلىٰ إصدار حكم الإعدام علىٰ عددٍ منهم ناهز الخمسين حسب المصادر الأسبانيَّة أن عددهم يبلغ زهاء ٥٠ شخصاً. منهم الرَّاهب **بيرفكتوس** والراهب **بول الفارو**، وأسقف طليطلة أولوخيو الذي «كتب روايةً عن هٰذه الحركة وسبَّ النَّبي عليه الصلاة والسلام فحُكمَ عليه بالأعدام سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م. **وبول الفارو** هو الذي كتب سيرة **أولوخيو** بعد مقتله»[٥٠].

وفي رواية **أولوخيو** وسيرته التي كتبها **الفارو** من الإساءات والافتراءات والتَّشويه والشَّتائم ما يعفُّ اللسان عن ذكرها أقلُّها وصف الإسلام بأنَّهُ «العقيدة الضَّالَّة، وخدعة الشَّيطان الماكرة... وعبادة إبليس، ومستنقع كلِّ الرَّذائل...» [٥١].

---

[٤٩] . الدكتور علي بن محمد عودة: **العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام**. العرب نيوز. ١٨ حزيران/ يوليو ٢٠١٦م.

[٥٠] . الدكتور علي بن محمد عودة: **العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام**. العرب نيوز. ١٨ حزيران/ يوليو ٢٠١٦م.

[٥١] . الدكتور علي بن محمد عودة: **العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام**. العرب نيوز. ١٨ حزيران/ يوليو ٢٠١٦م.

وبعد نحو مئة سنة خرج علينا **نيقتاس البيزنطي**[٥٢] بكتاب سمَّاه (دحض كتاب محمد المزور)[٥٣]. في الكتاب الكثير من الافتراءات والمزاعم والإساءات خلاصتها «أنَّ **محمداً عليه الصلاة والسلام** قاد المسلمين ليعبدوا في مكة وثناً مصنوعاً علىٰ غرار **أفروديت**، وأنَّهُ جعل الشَّيطان ربًّا للخلق، وظلَّ يؤكِّد علىٰ أنَّ دين **محمد عليه الصلاة والسلام** دينٌ وثنيٌّ وأنَّ أتباعه مجرَّد جماعة من الوثنيين. وكان في كلِّ سورةٍ (يسميها أسطورة) يتحدَّث عنها يوجه السَّب والشَّتم إلىٰ **النبي عليه الصلاة والسلام**، زاعماً أنَّهُ هو الذي وضع القرآن وشحنه بالأساطير، وأنَّهُ أمر أتباعه بقتل من يجعل شريكاً في جانب الله، ولذلك وَقَعَ معظم ذلكَ القتل علىٰ النَّصارى الذين يعبدون المسيح ابن الله»[٥٤]. وهٰذا كل مما نجده في الخطاب الإسلاموفوبي اليوم.

وبعد نحو من مئة سنة كانت رسالة نجم نجوم الثَّقافة الإسلاميَّة الفيلسوف النَّصراني **يحيى بن عدي** المتوفى سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٥م، الذي أجلَّهُ المسلمون وبجَّلوه وأكرموه حَتَّىٰ غدا نجم نجوم الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة. كتب «رسالة النَّصراني الشَّرقي»، وهي من دعائم الثَّقافة الغربيَّة في الإسلاموفوبيا والحرب علىٰ الإسلام، وهي التي أحدثت المشروع الكلوني برمَّته، لهٰذا المشروع الذي سنمرُّ به بعد قليلٍ.

---

[٥٢] . نيقتاس البيزنطي الذي عاش في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي.

[٥٣] . كان الكتاب تلبية للإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث (٢٢٧ . ٢٥٤ / ٨٤٢ . ٨٦٧) الذي تلقى مقالتين من بعض العلماء المسلمين تفندان مزاعم النصارى بأنَّ لله جلَّ وعلا ابن يشاركه في أسمائه وصفاته، وبطلان مقولة الأقانيم الثلاثة، فكلَّفَ الإمبراطور نيقتاس بالرد عليهما.

[٥٤] . الدكتور علي بن محمد عودة: **العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام**. العرب نيوز . ١٨ حزيران/ يوليو ٢٠١٦م.

لن نطيل الوقوف عند الرسالة عرضاً ولا مناقشة فقد عرضها الدكتور علي عودة عرضاً مختصراً وافياً في بحثه، وهي افتراءات صريحة وتناقضات واضحة، فيما اشتهر عنه من حنكة وذكاء بدأ بمحاولة دحض عقيدة التوحيد، ثمَّ وجه هجومه علىٰ **النبي صلى الله عليه وسلم** باتهامات من مختلف الألوان والأنواع، «فاتهمه بأنَّهُ كان يطمع أن يكون ملكاً فادعى النبوة، واغتصب أرضاً لغلامين يتيمين وبنى عليها مسجده، وأنَّهُ اصطحب قوماً فراغاً لا عمل لهم، وبدأ في شن الغارات وممارسة النَّهب والسَّلب وقطع الطَّريق وإخافة السَّبيل، ويتَّهم **النبي عليه الصلاة والسلام** أنَّهُ أمر باغتيال بعض الآمنين في بيوتهم... ثمَّ يهاجم شعائر الإسلام، ويعتبر الحج عملاً من أعمال الوثنيَّة، ويرى أنَّ الجهاد في سبيل الله إنَّمَا هو عمل الشيطان...»[٥٥]، وغير ذَلكَ كثير علىٰ مدار مئة وأربعين صفحة.

المسألة المهمة التي انتبه إليها عودة هي أنَّ **يحيى بن عدي** كتب هٰذا الكتاب حين ازداد دخول النَّصارى في الإسلام في القرن الرَّابع الهجري، وكان هدفه منه تحصين أهل الذِّمَّة من النَّصارى لمنعهم من اعتناق الإسلام وإقناعهم بأنَّ دينهم هو الدِّين الصَّحيح، بما يشبه تماماً ما يحدث اليوم من الخوف من أسلمة أوروبا إثر الإقبال المتزايد من الأوروبيين علىٰ دخول الإسلام.

في الفترة ذاتها وصلت الرسالة إلىٰ أوروبا وكانت فيما يبدو سبباً مباشراً في إنشاء دير كلوني في جنوب فرنسا الذي تأسس سنة ٢٩٧هـ/٩١٠م ومنه انبثقت حركة لإصلاح الحياة الرهبانيَّة عُرفت في التَّاريخ الأوربي باسم حركة الإصلاح الكلونيَّة، ومن هٰذا الدِّير انطلقت حملة الإسلاموفوبيا وحملة العداء

[٥٥] . الدكتور علي بن محمد عودة: **العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام**. العرب نيوز. ١٨ حزيران/ يوليو ٢٠١٦م.

للإسلام علىٰ نحو مبرمج ممنهج، «وهٰذا المشروع يعتبره بعض الباحثين الغربيين بأنَّهُ: المشروع الغربيَّ العالميَّ الأول لدراسة الإسلام، وهو في حقيقته المشروع الغربي الأكبر لتشويه صورة الإسلام، الذي حدث سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٣م»[٥٦]. علىٰ يد الرَّئيس الجديد لدير كلوني الراهب **بيير موريس دي مونتبوسيير** الذي أطلق عليه معاصروه لقب بطرس المكرَّم.

وربَّما مع إنشاء هٰذا الدِّير بدأ التَّخطيط للغزو الصليبي، ومع **أوربان الثاني** (١٠٩٦ ميلادي) منظم الحملات الصليبيَّة تظهر الإسلاموفوبيا بوضوح في خطاب **أوربان الثاني** الذي كان يجمع النَّاس للمشاركة في الحروب الصليبيَّة بصراخه وصياحه: «المسيح المعذب يدعوكم... القبر المقدس يرجوكم... الوعد الأعظم ينتظركم...». أكثر من مئتي سنة من الحروب الصليبيَّة وهٰذا الخطاب يتردَّد في أرجاء أوروبا ويشكِّل عقليتها المعادية للإسلام... هنا نقطة الفهم الحقيقيَّة لفوبيا الإسلام: فوبيا الإسلام هي العداء للإسلام والحشد ضدَّه وليست الخوف من الإسلام أو المسلمين كما سيبدو في سياق البحث مراراً.

ومنذ بدء مشروع كلوني سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٣م وعلىٰ مدار قرنين علىٰ الأقل شهدت أوروبا أكبر حملة في رسم صورة الإسلام المشوَّه واستعداء الأوروبيين ضدَّ الإسلام وتكوين العقليَّة الغربيَّة تجاه الشَّرق والعرب والإسلام، هٰذه العقليَّة التي كانت موجودة أساساً واستمرَّت إلىٰ يومنا هٰذا كما هي تقريباً من دون أيِّ تغيُّرٍ سوى مزيد التَّعزيز والتَّقوية.

---

[٥٦] . الدكتور علي بن محمد عودة: **العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام**. العرب نيوز. ١٨ حزيران/ يوليو ٢٠١٦م.

ففي هٰذه الفترة «كتبت أربع سير للرسول (عليه الصلاة والسلام) باللغة اللاتينيَّة من قبل قساوسة ورهبان لقيت رواجاً كبيراً في الأوساط المدرسيَّة المسيحيَّة ساهمت في ترسيخ أفكار مشوَّهةٍ عبر سلسلةٍ من القصص المختلقة في التُّراث الفلكلوري المسيحي تركِّز علىٰ إلصاق أبشع الصِّفات بالرَّسول الكريم»[٥٧].

ركزت هٰذه المرحلة علىٰ تشويه الرسول الكريم والإساءة إليه أكثر مِمَّا ركَّزت علىٰ تشويه المسلمين كما هو الأمر اليوم. كانت الحرب علىٰ الإسلام في تلك المرحلة علىٰ طبيعتها الحقيقيَّة غير مضطرة للمجاملة واللف والدَّوارن مثلما هو الأمر اليوم لأسباب كثيرة منها الإعلاميَّة. ولذٰلك ركَّزوا حربهم علىٰ نسف أصل الإسلام وهو الرسول **محمد صلى الله عليه وسلم**، فإذا نسف هٰذا الأصل لم يعد لشيء بعده قيمة.

في تلك الفترة تفاوتت مستويات تشويه الرَّسول صلى الله عليه وسلم ووصلت إلىٰ حدود يعجز اللسان عن ذكرها ويأبى ترديدها. ففي كتاب (في ظهور محمد[٥٨]) لراهب فرنسي من دير كلوني في القرن الثاني عشر الميلادي صوِّر الرسول علىٰ هيئة «وحشٍ ذي لحيةٍ طويلةٍ»[٥٩].

وتظهر فوبيا الإسلام ظهوراً جليًّا في مخطوط يرجع إلىٰ سنة ١٢٤٢م **لألكسندر لايكس** إذ يخوِّف الأوروبيين من المسلمين ويصورهم علىٰ أنَّهُم

---

[٥٧] . خالد يوسف: **جريمة الرسوم؛ عدسة البقع السوداء وعين المخابرات** . موقع المسلم نت . ٤آذار/ مارس ٢٠٠٦م.

[٥٨] . محفوظ في مكتبة الأرسنال في باريس برقم ١١٦٢.

[٥٩] . خالد يوسف: **جريمة الرسوم؛ عدسة البقع السوداء وعين المخابرات** . موقع المسلم نت . ٤آذار/ مارس ٢٠٠٦م.

وباء وحشي يجتاح المسيحيَّة، وقد «صور كلاً من الرسول الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام **وصلاح الدين** بصورةٍ بشعة يباركان مجموعة من المسلمين في مواجهة مجموعة من المسيحيين أمام الصَّليب»[٦٠]. وكذلكَ بالطَّريقة ذاتها وفي الفترة ذاتها تظهر فوبيا الإسلام في مخطوطٍ[٦١] للرَّاهب الفرنسي **بيير دي بواتييه** «الذي يربط بَيْنَ **رسول** الله **وصلاح الدين** في معاداة الصَّليبيَّة والحرب عليها»[٦٢].

وإلىٰ جانب هٰذه الكتب وغيرها كان يسير مشروع كلوني، مشروع **بطرس المكرَّم**. **بطرس** هٰذا رأى في الإسلام «هرطقة تهدد النصرانيَّة»، كيف تهدد هرطقة ديناً؟ ودعا إلىٰ محاربة الهرطة بتحريفها وتشويهها!! إن كانت هرطقة يكفي أن تقدِّمها كما هي ولا حاجة لتحريفها وتشويهها. وعلىٰ هٰذا الأساس شكل فريقاً لترجمة القرآن ترجمةً مشوَّهةً تقدِّمه للنَّصارى بصورةٍ مقرفةٍ منفِّرةٍ. وهٰذا ما طلبه من المترجم الإنجليزي روبرت أوف كيتون وفعله المترجم باجتهادٍ وإدراكٍ فهو من المفترض أنَّهُ يترجم القرآن ولٰكنَّهُ جعل الترجمة حرباً علىٰ الإسلام وتحريضاً عليه، أي ببساطة لم يتحلَّى بأيِّ عنصر من عناصر أمانة الترجمة، بما يعكس حقيقة الهدف المسبق وهو تشويه الإسلام والافتراء عليه ويبين أنَّهُ في خطابه إلىٰ **بطرس المكرم** في مقدمة الترجمة: «ولذلك قمت بالعمل معك لما علمت أن نفسك مجتهدة في سبيل كلِّ شيءٍ صالحٍ، وأنَّك تتوق إلىٰ ردم

[٦٠] . خالد يوسف: **جريمة الرسوم؛ عدسة البقع السوداء وعين المخابرات** . موقع المسلم نت . ٤آذار/ مارس ٢٠٠٦م.

[٦١] . المخطوط محفوظ في مكتبة معهد ايتون في وندسور تحت رقم٩٦.

[٦٢] . خالد يوسف: **جريمة الرسوم؛ عدسة البقع السوداء وعين المخابرات** . موقع المسلم نت . ٤آذار/ مارس ٢٠٠٦م.

المستنقع غير الخصب للعقيدة الإسلاميَّة... لذلك أنا كشفت عن السُّبل والوسائل . بكل جهدي . للوصول إلىٰ ذَلكَ... وها أنا أحضرت الخشب والحجارة اللازمة لعمارتك الجميلة التي يجب أن تنتصب فوق الجميع خالدة. أنا كشفت الغطاء عن دخان **محمد** الذي يجب أن يُخمد بواسطة منفاخك»[٦٣].

وما الذي فعله؟ فعل الكثير من الطَّعن والتَّشويه والتَّحريف والتَّغيير والتَّبديل، واختصر ذَلكَ بقوله بأنَّهُ قد صحَّح أخطاء «دكاترة الكنيسة الذين أهملوا تلك الهرطقه الكبرى . يقصد الإسلام . لتصل وتصعد إلىٰ شيء ضخمٍ جدًّا ومفرطٍ لمدَّة خمسمائة وسبع وثلاثين سنة، لأنَّهَا مهلكةٌ وضارَّةٌ، وتُحطِّم بالخداع قانون الدين المسيحي»[٦٤]. وفي هٰذا الكلام اعتراف بتناقضه من جهة وصف الإسلام بالهرطقة أي الكلام الفارغ والمتناقض يشكل خطراً علىٰ الدين النصراني! وإذا كان هرطقة فلماذا قام بما قام به من تزوير وتشويه وتحريف...؟!

جهود **بطرس المكرَّم** لا تتوقَّف هنا فهي كثيرةٌ ومتنوِّعةٌ، إنَّهَا مشروعٌ كبيرٌ بكلِّ ما تحمله الكلمة من معنى. نكتفي بهٰذا القدر منها لأنَّهَا تستحقُّ وقفةً مستقلَّةً مطوَّلةً لوحدها. علىٰ أننا لا بُدَّ من التذكير بمدى خطورتها ومدى ما أسهمت به في بلورة العقل الأوروبي وصنعه في هٰذا الشَّأن، ومدى ما فيه من تشويهٍ وتزويرٍ وتحريفٍ وتضليلٍ... كل ذَلكَ عن وعيٍ وإدراكٍ وتخطيطٍ مسبَّقٍ.

---

[٦٣] . الدكتور علي بن محمد عودة: **العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام** . العرب نيوز . ١٨ حزيران/ يوليو ٢٠١٦م.

[٦٤] . الدكتور علي بن محمد عودة: **العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام** . العرب نيوز . ١٨ حزيران/ يوليو ٢٠١٦م.

بعد ذَلكَ لم تتوقَّف الحملة ولو عاماً واحداً. وفي كلِّ عقدٍ علىٰ الأقل لدينا كاتب يسطع نجمع في سماء أوروبا في حملة استعداء الأوروبيين ضدَّ الإسلام وتشويهه والتَّخويف منه... بما يعني حملة إسلاموفوبيَّة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لو كان اصطلاح الفوبيا موجوداً حينها لكان مرافقاً لكل تلك الكتابات والحملات.

في خواتيم القرن الثالث عشر برز الرَّاهب الإسباني **سان بدرو باسكوال** المتوفى سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م الذي كتب الكثير من الكتب في تشويه الإسلام والافتراء عليه والاستعداء ضدَّ المسلمين ومنه كتابه (الفرقة المحمديَّة)، الذي ركَّز فيه، مثل الجميع قديما وحديثاً واليوم علىٰ الطعن في مسألة الجهاد، ومما جاء فيه: «ما الذي جاء به **محمد** غير الفسوق والسَّلب، القرآن علىٰ حدٍّ سواء وبتناقض، أَمَرَ بالسَّلب والحرب، والحديث أكَّد هٰذا، حيث وُعِدَ المسلمون بمكافأة ضخمة من أجل الموت في الحرب، وأنَّ جروحهم سوف تكون جميلة يوم البعث، ذَلكَ أنَّ **محمداً** أمر بأن النَّاس من غير المسلمين يجب أن يُقتلوا بواسطة الجهاد، وتُغتصب نساؤهم ويؤخذن سبايا مع الأطفال، وخيراتهم تُنهب وبلادهم تُحتل. وقد زعم **سان بدرو باسكوال** أنَّ **محمداً عليه الصلاة والسلام** أثنى ذات مرَّةٍ علىٰ آلهة الوثنيين في آيات زعم أنَّ المسلمين يسمونها الآيات الشَّيطانيَّة[٦٥] واخترع الكثير من القصص والأساطير التي نسبها لرسول الله والإسلام»[٦٦].

---

[٦٥] . هٰذا العنوان هو الذي اتخذه سلمان رشدي لكتابه المخصص للإساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكاتب البحث يقول إنَّهُ الكتاب كله مأخوذ من باسكوال وفنديزو وريكولدو وغيرهم من كتّاب العصور الوسطى.

[٦٦] . الدكتور علي بن محمد عودة: **العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام**. العرب نيوز. ١٨ حزيران/ يوليو ٢٠١٦م.

لم تتوقف الجملة أبداً كما أشرنا، ولقد كان للقرنين الثَّالث عشر والسَّابع عشر أثراً بالغاً في صوغ العقل الجمعي الأوروبي منذ تلك المرحلة إلىٰ درجة أنَّهُ في عام ٧٦٢هـ / ١٣٦١ م كتب الرَّاهب البندكتي **أوثرد أوف بولدون** الذي يعمل في جامعة أكسفورد قائلا: «إنَّهُ عند لحظة الموت لكلِّ إنسانٍ سواء كان نصرانيًّا أو مسلماً، أو من أيِّ دين، فإنَّهُ ينعم بالرُّؤية المباشرة للرَّب، ويتلقى حكمه الأبدي في ضوء استجابته لهٰذه التَّجربة... فقامت ضدَّ الراهب **أوثرد** احتجاجات عنيفة من زملائه الرُّهبان مفادها: كيف يمكن لمسلمٍ أن ينجو من الهلاك والعذاب السَّرمدي؟؟؟ فاضطر الرَّاهب **أوثرد** إلى سحب اقتراحه»[٦٧]. لم يحتجُّوا علىٰ أيِّ دين من الأديان، يمكن لكلِّ الوثنيين أن ينعموا برؤية الرَّبِّ وأبناء كلِّ الأديان يمكن أن ينعموا بذٰلكَ... ولا اعتراض... الاعتراض فقط علىٰ أن يمكن ذٰلكَ للمسلم!!!

هٰذه هي الصُّورة التي نعيشها اليوم؛ كلُّ الأديان الوثنيَّة جيِّدةٌ، عبادة الشَّيطان جيِّدةٌ، الإلحاد جيِّدٌ... كلُّ شيءٍ جيِّدٌ إلا الإسلام!!!

نقفز إلىٰ الجانب الآخر من الأرض، وإلىٰ القرن مطالع التَّاسع عشر. لن نبدأ من نشأة القارة الأمريكيَّة الحديثة وما فيها من معطيات تشيب لهولها الولدان، وهي متصلة بالإسلاموفوبيا وفق أكثر الدِّراسات والأبحاث وثوقيَّةً. سنقف عند بداية الدَّولة الأمريكيَّة.

مع استقلال الدَّولة الأمريكية إداريًّا وسياسيًّا عن الأصل الأوروبي وليس الاحتلال الأوروبي بدأ يظهر الفكر المؤسِّس والعقائد الأساسيَّة للدَّولة علىٰ يد

---

[٦٧] . الدكتور علي بن محمد عودة: **العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام**. العرب نيوز. ١٨ حزيران/ يوليو ٢٠١٦م.

الأمريكيين الجدد الأوروبيين أصلاً، ومنهم القس **جورج بوش**[٦٨] الذي وضع كتاباً بعنوان: «حياة محمد مؤسِّس الدِّيانة الإسلاميَّة» الذي كان إعادة استنساخٍ وتكراراً لما بات يصعب الإضافة عليه من إساءاتٍ وتشويهٍ وتحريفٍ وتضليلٍ وتحريضٍ واستعداءٍ، فصدر الكتاب في طبعته الأولى بنيويورك عام ١٨٣٧م وقيل خطأً ١٨٣٠م، وأعيدت طباعته في ٢٠٠٢م مع ولاية **جورج بوش الابن**، وترجم علىٰ الفور في مصر إلىٰ العربيَّة ترجمة تقديرٍ لا للنقد ولا للتَّعريف، الأمر الذي حدا بالأزهر إلىٰ المطالبة بسحب الكتاب من الأسواق ومنع تداوله.

سنكتفي بهٰذا القدر من تاريخ طويل لم ينقطع العمل فيه عاماً في الغرب علىٰ الإساءة للإسلام كلاً وأبعاضاً وتفاصيلاً: القرآن، الرسول صلى الله عليه وسلم، الحديث الشريف، السيرة النَّبويَّة، تاريخ الإسلام وحَتَّىٰ لله وجلَّ وتعالى عما يسيئون. لنصل إلىٰ القرن العشرين وفيه ما فاق القرون الماضية كلَّها تقريباً ليس بجديد المعلومات ولا بطريقة الإساءة وإنَّمَا بالعمل المبرمج المخطَّط المنظَّم الذي بدأ مطلع القرن العشرين بدهاءٍ شديدٍ وأخذ يزداد دهاءً وإحكاماً، وإن كان كل الدَّهاء والإحكام قد ظلَّ تحت مطرقة التناقضات الصارخة. وصارت مؤسَّسات الدَّولة الغربيَّة ذاتها تقف شريكاً وفاعلاً في حملة الإسلاموفوبيا.

---

[٦٨] . وفق التعريفات التي انتشرت في مرحلة نشر الكتاب الذي كان عليه إقبال هائل قالت المقالات إنَّهُ تربطة علاقة قربى بجورج بوش الأب والابن، وهٰذا القس الجد درس اللاهوت في جامعة برنستون، وشغل منصب أستاذ في جامعة نيويورك، فيما بعد، لمادتي الأدب الشرقي واللغة العبرية هناك وأضحى مرجعاً مهمًّا في المجالين. كان حادًّا في معتقداته ومثيراً للجدل الأمر الذي تسبب في انشقاقه الاختياري عن كنيسته الأصلية وانضمامه لمذهب «كنيسة القدس الجديدة»، التي احتضنت إنتاجاته إلىٰ أن توفي في ١٩ أيلول/ سبتمبر ١٨٥٩م.

الإسلاموفوبيا ومأسسة الحقد الغربي

بعد كلِّ ما سبق لم يعد ثَمَّةَ أدنى شكٍّ في أنَّ فوبيا الإسلام حملةٌ مصطنعةٌ مبرمجةٌ ممنهجةٌ وليست مخاوف حقيقيَّةً من الإسلام لأيِّ سبب من الأسباب المزعومة. كلُّ الأسباب والمظاهر التي يخوِّفون بها النَّاس من الإسلام كاذبةٌ افترائيَّةٌ ولا تقوم أبداً علىٰ أيِّ أساسٍ من الصِّحَّةِ. حَتَّىٰ الخوف العقيدي أو الدِّيني من دخول النَّصارى الغربيين في الإسلام ذاته ليس إلا دليلاً أو شاهداً علىٰ قوَّة الإسلام وسلامته وتماسكه وعدم ضحالته أو سوئه كما يزعمون.

علىٰ أنَّ الحقيقة الأوسع والأشمل من ذَلكَ هي ما تقدِّمه لنا تاريخيَّة فوبيا الإسلام من معطيات وحقائق عن تجذر هٰذه الظَّاهرة بمضمونها وأهدافها وغاياتها وإن كان الاسم ذاته جديداً نسبيًّا... بما يعزِّز حقيقة أنَّ الإسلاموفوبيا عملٌ مؤسَّساتي مبرمجٌ ممنهجٌ مدروسٌ وليست محض ظاهرةٍ اجتماعيَّةٍ مقترنةٍ بأحداث ظرفيَّةٍ، ولا هي مرتهنةٌ بنتائج أحداثٍ حاليَّةٍ ولا ما يشبه ذَلكَ.

وعلىٰ الرَّغْمِ من ذَلكَ كلِّهِ، وعلىٰ افتراض تجاوزه، والقبول بتجاهله، فإنَّ المعطيات الواقعيَّة الرَّاهنة اليوم تقدِّم عشرات الأدلَّة القاطعة علىٰ أنَّ الإسلاموفوبيا عملٌ مؤسَّساتي تقوده الدُّول ذاتها بمختلف مؤسَّساتها، بما يعكس حقيقة المؤامرة علىٰ الإسلام ويؤكِّد حقيقة أنَّ الإسلاموفوبيا خوف مصطنعٌ وافتراءٌ مقصودٌ وكذبٌ صريحٌ... فلم يعد خافياً مدى القبول والرِّضى الذي «لقيه انتشار الإسلاموفوبيا في دوائر أوروبيَّةٍ نافذةٍ ومؤثِّرةٍ»[٦٩].

---

[٦٩] . محمد فال ولد المجتبى: **الإسلاموفوبيا القاتلة.. على نفسها جنت أوروبا** . الجزيرة نت . الخميس ١٤٣٢/٨/٢٧ هـ – الموافق ٢٠١١/٧/٢٨م.

مـع بـروز اصـطلاح الإسـلاموفوبيا والـتَّرويج لـه، حسـب السِّياسـي والباحـث الأمريكـي **تيمـوثي سـافيج** وبالتَّنـاغم مـع مؤسَّسـات الدَّولـة، فقـد شـهدت السَّـنوات الأخـيرة مـن القـرن العشـرين «تنـامي التَّيَّـارات اليمينيَّـة في أوروبـا وموجـة الخـوف مـن الإسـلام، أو مـا يعـرف بالإسـلاموفوبيا؛ بسـبب تزايـد الحضـور الإسـلاميِّ في الغـرب، وسـجَّلت التَّيَّـارات اليمينيَّـة حضـورًا يبعـث علـىٰ القلـق، فظهـر- علـىٰ سـبيل المثـال- **فلامـيش بلـوك** في بلجيكـا، والحـزب القـومي البريطـاني، وحـزب الشَّـعب الـدنماركي، والجبهـة الوطنيَّـة الفرنسـيَّة بزعامـة **جـان مـاري لوبـان**، ورابطـة الشَّـمال الإيطاليَّـة، وحـزب الشَّـعب السويسـري، ولعَـلَّ عـدداً مـن الحكومـات الأوروبيَّـة اليـوم تضـمُّ تيَّـارات يمينيَّـة ضـمانًا للأغلبيَّـة البرلمانيَّـة، علـىٰ الـرَّغْمِ مـن العـداء العلـني الـذي تبديـه لهـذه التَّيَّـارات للإسـلام والمسـلمين، وقـد ارتفعـت الكثـير مـن الأصـوات في أوروبـا تطالـب بحمايـة المصـالح الأوروبيَّـة لتمريـر خطابهـا المنـاوئ للوجـود الإسـلامي، فبـدأت الحملـة للحـدِّ مـن الهجـرة، والمطالبـة بسـنِّ قـوانين تحظـر الحجـاب في المـدارس والمؤسَّسـات العامـة، وتشـديد قوانين اللجوء»[٧٠].

والحقيقة التي باتت بحكم البداهة في الأوساط الفكريَّة والإعلاميَّة المتابعة لهذه الظاهرة سواء الإسلاميَّة أو الغربيَّة ذاتها هي أنَّ «ظاهرة الإسلاموفوبيا أصبحت تتَّخذُ طابعاً مؤسَّساتيًّا ودستوريًّا في ظلِّ التَّطورات في الشَّرق الأوسط،

---

[٧٠] . تيموثي سافيج: **أوروبا والإسلام؛ الهلال المتنامي وصدام الثقافات** . ترجمة الموقع . موقع إخوان أون لاين . الاثنين ٢٠٠٤/٠٨/١٩م. البحث منشور في: (The Washington quarterly. No Summer 2004).

وباتت الجاليات العربيَّة والمسلمة تواجه إجراءاتٍ قانونيَّةً تستهدف مؤسَّساتها وتنظيماتها»[٧١].

في ظلِّ التَّطوُّرات الأخيرة حسب ضيف برنامج الواقع العربي، ولَكنَّهَا في الحقيقة، أي المأسسة، أقدم من ذَلكَ بكثيرٍ، وأسبق علىٰ ظهور الاصطلاح بكثيرٍ جدًّا. ولأنَّ التَّركيز هنا علىٰ وقتنا فلا بأس من السَّير في هٰذا الطَّريق مستقلاً عن الماضي. وفي هٰذا الإطار فإنَّ المسألة الأكثر أهميَّةً التي يجب أن نقف عندها بدايةً هي الإحصائيَّة التي قدَّمتها مؤسَّساتٌ أوروبيَّةٌ خالصةٌ عن المساهمين في جملة الإسلاموفوبيا، إذ بيَّنت هٰذه الدِّراسات «أنَّ ٦٤% ممن يقومون بهٰذه الحملة مؤسَّسات رسميَّة، و ٣٤% كيانات قانونيَّة، و ٢% أفراد»[٧٢].

وفي عام ٢٠٠٥م «كشفت دراسةٌ حديثةٌ، حينها، بجامعة الأزهر عن أنَّ عدد المواقع الإلكترونيَّة، التي تهاجم الإسلام، سواءً بطريقٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ، تتعدَّى عشرة آلاف موقع علىٰ شبكة الإنترنت. وأنَّ الميزانيَّة المرصودة لمهاجمة الإسلام في جميع وسائل الإعلام، ومنها الإنترنت تتعدى المليار دولار سنويًّا»[٧٣].

في السِّياق ذاته المفكر المسيحي العربي الأمريكي **جيمس زغبي** رئيس المركز العربي الأمريكي يفتتح مقالاً له قبل أكثر من عشرة أعوام بقوله: «إنَّ

---

[٧١] . برنامج الواقع العربي: **الجاليات العربية والمسلمة بأوروبا وظاهرة إسلاموفوبيا؛ المسلمون محاصرون بالإسلاموفوبيا من الغرب وبأنظمة لا تقل إسلاموفوبيا عن الغرب . الجزيرة نت .** الثلاثاء ١٤٣٦/٢/٩ هـ – الموافق ٢٠١٤/١٢/٢م.

[٧٢] . من استقصاء منظمة مناهضة الخوف من الإسلام في أوائل عام ٢٠١٦م. نقلاً عن: برنامج بلا حدود . لقاء مع مايكل بريقو مدير الشبكة الأوروبية لمكافحة العنصرية . قناة الجزيرة . الأربعاء ٧ أيلول/سبتمبر ٢٠١٦م.

[٧٣] . قدس برس: **آلاف المواقع لمهاجمة الإسلام** . موقع دنيا الوطن . غزة . ٤/ ١٠/ ٢٠٠٥م.

الحملة المعادية للعرب (والإسلام) المنتشرة في الولايات المتَّحدة اليوم هي حملةٌ منظَّمة متعدِّدة الاغراض تستهدف العديد من القادة العرب، والمؤسَّسات والإسلام»[٧٤].

أمام هٰذه المأسسة وما تقدِّمه من إغراءاتٍ وغضِّ نظرٍ عن المتمادين في تصعيد الخوف من الإسلام ومحاربة الإسلام وتشويه الإسلام «أصبح الخوف من الإسلام أو الإسلاموفوبيا موضوعاً مطلوباً، وله نجومُهُ ومشاهيره في مختلف وسائل الإعلام، خاصَّةً الأمريكيَّة... وتتصاعد حملة الإعلام الغربي ضدَّ الإسلام وماكينته التي تحشد وتضخِّم، وسط غياب أيِّ قوانين تجرِّم مثل هٰذا النَّوع من التَّمييز»[٧٥]. وكذٰلكَ الأمر في أوروبا ومنها فرنسا إذ «تشكل ظاهرة الإسلاموفوبيا مادَّةً دسمةً في وسائل الإعلام الفرنسيَّة، ونجومها مفكرون وسياسيون يمينيون[٧٦] فرنسيون يعتبرون الإسلام والمسلمين خطراً علىٰ ثوابت وقيم الدولة العلمانيَّة، منتقدين سياسيَّة التَّسامح مع المظاهر الإسلاميَّة»[٧٧].

نجوم الإسلاموفوبيا هٰؤلاء نجومٌ مستجلبون، ممثلون، لأنَّ نجوم الإسلاموفوبيا الحقيقيون هم القادة والسِّياسيون، ممثلو الدَّولة الغربيَّة ورموزها وهم من أعلىٰ المستويات في الدولة، ولا أدلَّ علىٰ ذٰلكَ من تصريحات **دونالد ترامب**

---

[٧٤] . جيمس زغبي: **حملة منسقة ومتعصبة** . جريدة الشرق الأوسط . لندن . العدد ٩٠٢٩ . الاثنين ٢٠ جمادى الآخرة الموافق لـ ١٨ آب/ أغسطس ٢٠٠٣م.

[٧٥] . برنامج المرصد: **عودة الإسلاموفوبيا.. وأطلس مستعد للقتال** . الجزيرة نت . برنامج المرصد . الاثنين ١٤٣٦/٣/١٤ هـ – الموافق ٢٠١٥/١/٥م.

[٧٦] . الطريف الملفت أن اليسار هو الذي يحمل لواء العلمانية ويدافع عنها، ولٰكن في محاربة الإسلام تنطع اليمين لمخالفة قناعاته والدفاع قيم العلمانية.

[٧٧] . فائزة مصطفى: **الإسلاموفوبيا في فرنسا؛ حروب افتراضية** . الجزيرة نت . الثلاثاء ١٤٣٤/٩/٢٢ هـ – الموافق ٢٠١٣/٧/٣٠م.

مرشَّح سباق الرِّئاسة الأمريكيَّة منذ سنة إلىٰ الآن، هٰذه التَّصريحات التي يتعذَّر إحصاؤها من كثرتها، وتحتاج وقفةً خاصَّةً مطوَّلةً لكثرتها وشدَّة عدوانيتها.

ليس **ترامب** مرشح الرِّئاسة الأمريكي منفرداً بتصعيد فوبيا لإسلام فقبل أكثر من عشر سنوات كان مرشَّح الرِّئاسة الأمريكيَّة الواعظ التِّلفزيوني **بات روبرتسون** قد قال: «إنَّ المسلمين أسوأ من النَّازيين»[٧٨]. وهٰذه لم تكن المرة الأولىٰ له وإنما هي جزءٌ ما تاريخه الطويل.

وليس مرشَّحو الرِّئاسة الأمريكيَّة منفردون بذٰلكَ بل الرُّؤساء الأوروبيون أنفسهم منخرطون في حملة الإسلاموفوبيا وهٰذه المستشارة الألمانيَّة **أنجيلا ميركل** الشِّيوعيَّة النَّشأة والتَّاريخ، اللوثريَّة الأسرة قالت عشيَّة الانتخابات الألمانيَّة في تموز/ يوليو من عام ٢٠٠٧م في مؤتمر حزبها الديمقراطي المسيحي: «يتعيَّن أن ننتبه إلىٰ عدم بناء قباب للمساجد أعلىٰ بشكلٍ واضحٍ من أبراج الكنائس»[٧٩]. ولا ننسى تصريحات الرَّئيس الفرنسي السَّابق **نيقولاي ساركوزي** في هٰذه الفترة التي يحاول فيها العودة إلىٰ قصر الأليزيه.

الأمر لا يتوقف عند الرؤساء والمرشحين للرئاسة في أمريكا وأوروبا بل يصل الأمر إلىٰ كبير المسيحيين في العالم بابا الفاتيكان ذاته. عندما تصدرُ الإساءة إلىٰ الإسلام وتشويهه وشيطنته من أعلىٰ وأكبر شخصيَّةٍ دينيَّةٍ مسيحيَّةٍ

---

[٧٨] . وكان ذلك عبر محطة تلفزيون كريستشان برودكاستينغ نيتوورك التي يملكها وتناقلتها وكالات أنباء مختلفة وكثيرة: **واعظ مسيحي أمريكي يشبه المسلمين بالنازيين** . الجزيرة نت . الأربعاء ١٤٢٣/٩/٨هـ الموافق ٢٠٠٢/١١/١٣م.

[٧٩] . محمود سلطان: **الخوف من أسلمة أوروبا.. مجدداً!** . موقع الإسلام؛ حركة التوحيد والإصلاح . الأربعاء، ٠٤ آذار/مارس ٢٠٠٩م. وهو منشور في أكثر من موقع إلكتروني منها مثلاً: المسلم أون لاين، المختصر، وغيرهما.

في العالم فلا يكن عدُّ ذَلكَ مسألة عابرة، ولا زلة لسان، ولا سوء فهم، لا يمكن إلا أن تفهم في سياق مأسسة الحرب علىٰ الإسلام، مأسسة فوبيا الإسلام، ففي محاضرةٍ عن الإيمان والعقل بألمانيا في منتصف أيلول ٢٠٠٦م اقتبس (علىٰ أساس ناقل لا مصدر) «**بنديكت** السَّادس عشر مقتطفاً من كتاب إمبراطور بيزنطي يقول فيه إنَّ **محمد (عليه الصلاة والسلام)** لم يأت إلا بما هو سيئ وغير إنساني كأمره[٨٠] بنشر الإسلام بحدِّ السيف»[٨١]. وعلىٰ الرَّغْمِ من المطالبات العالميَّة الواسعة ومن مختلف المستويات بأن يعتذر عن هٰذه الإساءة فإنَّهُ لم يعتذر والتَّوضيح الذي صدر عن مدير مكتبه الإعلامي الأب **فيديريكو لومباردي** كان أسوأ من الإساءة بمليون مرة وأكثر إذ قال: «إنَّ البابا لم (يشأ) إعطاء تفسير للإسلام يذهب في اتجاه العنف»[٨٢]. ولذلك لم يصف الإسلام بالعنف واكتفىٰ بأنَّ كل ما في الإسلام سيء.

وما دون هٰذه السُّقوف العليا فمن الطَّبيعي أن يكون مختلف المسؤولين في الدَّولة، كما أبَّنا في فقرات وفصول سابقة، سائرن علىٰ هٰذا الغرار والمنهج، فعندما تصرِّحُ وزيرة العدل البريطانيَّة أنَّ: «التَّطرُّف الإسلاميَّ يشكِّل خطراً علىٰ المجتمع وتهديداً للأمن العام»[٨٣]. وتقوم وزارة الخارجيَّة البريطانيَّة بتبني الخطاب ونشره وتعميمه فنحن أمام عملٍ مؤسَّساتيٍّ بما يقطع دابر أيِّ شكٍّ أو تشكيكٍ...

---

[٨٠] . علىٰ أساس أن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام هو من ألف القرآن بالاعتقاد المسيحي.

[٨١] . وكالات: **البابا ينتقد الإسلام ويقتبس إساءة لنبيه** . الجزيرة نت . الخميس ٢٠٠٦/٩/١٤م.

[٨٢] . المصدر السابق . ذاته.

[٨٣] . نقلاً عن موقع الخارجية البريطانية على موقع تويتر . تغريدة في يوم السبت ٢٧/ ٨/ ٢٠١٦م.

المفكر المسيحيُّ العربي الأمريكي **جيمس زغبي** يحدِّثنا عن آليَّة الهجمة أو الحملة المنظَّمة ضدَّ الإسلام، وعن بعض شخصيَّاتها في أمريكا.... «إنَّ الهجمات ضدَّ العرب (الإسلام) الدَّائرة الآن تعيد إلىٰ الأذهان بعضاً من الشَّخصيَّات نفسها التي تشارك مرَّةً أُخْرَىٰ في حملةٍ كراهيَةٍ، وإن كانت موجهة هٰذه المرَّة ضدَّ أمَّةٍ ودينٍ بأكمله. والمشاركون في هٰذه الحملة هم مجموعة من ممثلي عدَّة منظَّماتٍ يمينيَّةٍ متطرِّفةٍ: قادة الجماعات الدِّينيَّة الأصوليَّة، ومجموعة مما يطلق عليها خبراء الإرهاب والإسلام {الذين هم في معظم الحالات مجموعة من المعادين للعرب (والإسلام) يرتدون أزياء مختلفة} ومجموعة مشتركة من الحزبين من أنصار حزب ليكود الإسرائيلي والمجموعة نفسها من قنوات التِّلفزيون ومحطات الإذاعة والصُّحف والمجلات... ومن خلال جهودهم المشتركة، يمكن تضخيم قصة تفتقر إلىٰ الدَّليل أو الجوهر وتحويلها إلىٰ حدثٍ إعلاميٍّ رئيسيٍّ»[٨٤].

والطَّريف الغريب العجيب في الأمر هنا، منطقيًّا، وهو المقصود عمليًّا، هو أنَّ الدُّول الغربيَّة لا تجد من تلجأ إليهم لتفهم الإسلام والمسلمين إلا أعداء الإسلام أو ما يمكن تسميته اليمين المسيحي المتطرف أو من المنسوبين إلىٰ الإسلام وهم علمانيون لا يقلِّون عداء للإسلام عن اليمين الغربي المسيحي المتطرِّف، لا يمكن القول بأنَّ هٰذا مصادفةٌ، ولا أنَّهُ جهلٌ من الدَّولة ومؤسَّساتها، إنَّهُ أمرٌ مقصودٌ مختارٌ بعنايةٍ، والأمثلة علىٰ ذٰلكَ كثيرةٌ جدًّا أكثر من أن تحصى، منها علىٰ سبيل المثال أنَّ مستشار الإدارات الأمريكيَّة للشُّؤون الإسلاميَّة وللمعلومات عن الإسلام والمسلمين هو **دوري چولد** السَّفير الإسرائيلي في

---

[٨٤] . جيمس زغبي: **حملة منسقة ومتعصبة** . جريدة الشرق الأوسط . لندن . العدد ٩٠٢٩ . الاثنين ٢٠ جمادى الآخرة الموافق لـ ١٨ آب/ أغسطس ٢٠٠٣م.

أمريكا والمتحدث باسم **نتن ياهو** في ٢٠٠٣م بوصفه خبيراً في الشُّؤون الإسلاميَّة وهو من هو في العداء للإسلام والمسلمين، وبعده حَتَّىٰ الآن **توماس فريدمان وبرنار ليڤي وبرنار لويس**... إنَّهُ قائم علىٰ فلسفة الاستشراق التي صوَّرها بدقة **إدوارد سعيد** في كتابه «الاستشراق»[٨٥]، ففي رأسهم صورةٌ لا يريدون تغييرها وإنَّمَا يريدون تغيير العقل الشَّرقي ليكون مثل الصُّورة التي رسموها هم عن الشَّرق.

خاتمة

ما قدمنه من هنا ليس إلا استعراضاً موجزاً عابراً غير مطول لحقيقة أنَّ الحملة علىٰ الإسلام تحت وفوق سقف الإسلاموفوبيا إنما هي حملة الأنظمة الغربيَّة بالمطلق أو علىٰ نحوٍ عامٍّ. لم نلجأ إلىٰ التَّوسُّع، في حقيقة الأمر، لأسباب ثلاثة علىٰ الأقل:

أولها أنَّ شواهد المأسسة والأدلة عليها موجودة بكثرة في فصول البحث الأُخْرَىٰ كلها تقريباً،

والثاني أنَّهُ ميدان واسع يستحقُّ وقفةً خاصَّةً مطولةً مستقلةً،

والثالث أنَّ في ما قدمنا صورة عامَّة شبه كافية لتصوُّر حقيقة الموضوع.

[٨٥] . الدكتور إدوارد سعيد: **الاستشراق** . صدر في طبعته الأولى بالإنجليزية عام ١٩٧٧م، والعربية الأولى عام ١٩٨١م، وفي أقل من ثلاث سنوات ترجم إلى تسع لغات: الفرنسية، الألمانية الإسبانية، الإيطالية، التركية، الفارسية، الماليزية، اليابانية، العربية. وأثار ضجة عالمية واسعة وحرك السواكن والثوابت الثقافية.

الفصل الثالث

وهم الاحترام المتبادل

منذ نحو عشر سنوات سمعت الدكتور **محمد عمارة** يتحدث عن تجربته في مؤتمر حوار الأديان في لقاء تلفزيوني. قال: نقطة الحوار الأساس هي الاحترام المتبادل بَيْنَ الأديان، وكان هٰذا موضع توافق الجميع، ووصلنا إلىٰ الأساس الذي ينبني عليه هٰذا الاحترام المتبادل هو اعتراف الأديان ببعضها... هنا توقف العمل وانتهى، رفضوا الاعتراف بالإسلام علىٰ أنَّهُ دين.

تمهيد

هٰذه هي نقطة الانطلاق التي يصدم بها الحوار دائماً. الجميع ينادي بالاحترام المتبادل ولٰكنَّ فريقاً يرفض الاعتراف بالآخر أساساً. كيف يمكن أن يكون هنا احترام متبادل بَيْنَ طرفين أحدهما لا يعترف بالآخر كله من أصله إلىٰ فروعه؟

مشكلة الشرق، مشكلة الإسلام أنَّهُ يعترف بالغرب ولٰكنَّ الغرب لا يمكن أن يعترف به، الإسلام والشرق يقبلا الغرب ولٰكنَّ الغرب لا يقبل بهما. إذن عن أيِّ حوارٍ بَيْنَ الأديان يتحدَّثون؟ عن أيِّ حوارٍ بَيْنَ الثَّقافات بتحدثون؟ عن أي حوار بَيْنَ الحضارات يتحدثون.

أشير إلىٰ هنا إلىٰ أنَّ سلاطين الشرق ومفكريه أكثرهم طبول جوفاء يسيرون في ركاب الغرب ويبتدعون مثل هٰذه الدعوات الطنانة للحوار مع الغرب، للحوار بَيْنَ الحضارات تلبية للطروحات الغربية الكاذبة واستجابة لها، ولا يفكرون في حقيقة الحوار وطبيعته وآفاقه. وتقوم الشعوب بالتطبيل والتزمير لدعوات زعمائهم من دون تفكير أيضاً.

من هٰذه الدَّعوات دعوة الرئيس الإيراني **محمد خاتمي** لحوار الحضارات التي راح الكثيرون يطبِّلون ويزمِّرون لها وكأنَّ **خاتمي** اكتشف ما عجز عن اكتشافه عباقرة الذرة، ودعيت لمناقشة هٰذه الأطروحة علىٰ التلفزيون في عام ٢٠٠٠م فيما أذكر، مفترضين أني سأطبل وأزمر لها مثل أسراب التَّطبيل والتزمير، ولٰكنِّي رفضتها بشدة، الأمر اذلي أثار استياء الكثيرين حينها.

أنا لست ضدَّ الحوار مطلقاً، الآخر هو ضد الحوار.

أنا لست ضدَّ احترام الرأي الآخر، ولٰكنَّ الآخر يريد أن نحترم رأيه وهو يرفض احترام رأينا.

أنا لست ضدَّ حوار الحضارات، ولٰكنَّ الحضارة التي تريد أن أحترمها يجب أن تحترمني.

علىٰ أيِّ حال، هٰذه بضع مقالات في هٰذا السِّياق نشرت في الأغلب بَيْنَ عام ١٩٩٩م وعام ٢٠٠١م حسب التَّواريخ المرقونة أدنى عنوان كلٍّ منها. وهي استكمال لما سبق الكلام فيه ولما سيأتي من انهيار وهم الحوار بَيْنَ الحضارات.

احترام الآخر واجب ولكن[٨٦]

لم يخطئ **ديدرو** عندما قال: «أدفع حياتي ثمناً لتقول لي: إني أحترم حريتك ورأيك». ذٰلكَ أنَّ احترام الآخر واحدٌ من أبرز مؤشِّرات الوعي الحضاريِّ والسُّلوك الحضاريِّ الذي ينعكس علىٰ المجتمع والأمَّة بكلِّ مستوياتها وميادين فعلها وانفعالها؛ الفرديَّة والجمعيَّة والمؤسَّساتيَّة، الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة والأخلاقيَّة والجماليَّة...

إنَّ احترام رأي الآخر وموقفه في حقيقة الأمر ليس دعوى يطلقها مفكِّرٌ أَو مسؤولٌ، ولا قراراً يقرِّه أديبٌ أَو صحافيٌّ أَو ناقدٌ أَو مسؤولٌ... إنَّهَا ممارسةٌ مسؤولةٌ يصل إليها المجتمع/ الأمَّة؛ أفراداً وروحاً جمعيَّةً من خلال نضالٍ جادٍّ فاعلٍ مسؤولٍ علىٰ مختلف المستويات والأصعدة والميادين للارتقاء بالمجتمع/ الأمَّة من حالة التَّخلف إلىٰ التَّطوُّر والتَّقدُّم؛ العلميِّ والعمليِّ، النَّظريِّ والتَّطبيقيِّ، الشُّعوريِّ واللاشعوري... لتصبح الحالة الحضاريَّة لهذا المجتمع/ الأمَّة جزءاً صميميًّا من طبيعته وتركيبته المكتسبة التي لن يكون من السَّهل أبداً تجاوزها أو تجاهلها، أو حَتَّىٰ محاولة التَّفكير في التَّنازل عنها أو مخالفتها[٨٧].

الطَّبيعة المكتسبة أو الطَّبع المكتسب طبع ثانٍ، ولا يكتسب الطبع ليصبح جزءاً من الجِبلَّة إلا بعد سيرورة طويلة وجهادٍ طويلٍ؛ قد يكون صعباً وهٰذا هو الأغلب، وقد يكون سهلاً وهو الأقل. وسيرورة هٰذا الجهاد أو النِّضال هي في

---

٨٦ . نشر هٰذا المقال تحت عنوان: **المنظومة الأخلاقية في احترام الرأي والرأي الآخر** . جريدة البعث . دمشق . العدد ١٢٤٨٦ . الخميس٢٦ شوال ١٤٢٥هـ/ ٩كانون الأول ٢٠٠٤م.

٨٧ . الكلام هنا وفيما يتبعه في موضوعه كلام في البنية الاجتماعية أو الحضارية الواحدة، وهو أمر مفترق عن حوار الحضارات ممارسة لا طلباً، فالمطلوب أن يكون حوار الحضارات والأمم بهٰذه الطريقة.

حقيقة الأمر فاعليَّة الإنسان ضمن المجتمع والمجتمع ضمن الأمَّة والأمَّة بأفرادها وجماعاتها في سياق تصويب الخلل وملء النَّقص وتصحيح الخطأ وقهر الفساد... علىٰ طريق بناء قوَّة المجتمع/ الأمَّة من خلال صناعة مقوِّمات القوَّة ومحاربة معيقات بناء هٰذه القوَّة.

ولذٰلك عندما قال **ديدرو** قوله الشَّهير الَّذي افتتحنا به مقالنا لم يكن يعني أن تُحترم حريَّته الفرديَّة لأنَّ هٰذا المطلب بهٰذه الفجاجة مطلبٌ أنانيٌّ من جهةٍ أولىٰ، ومنبثق عن عقدة نقص واضطهاد من جهةٍ ثانيةٍ، ومنطوٍ علىٰ نوعٍ من الغباء من جهةٍ ثالثة، لأَنَّهُ بهٰذا المعنى سيضطر إلىٰ هٰذه التَّضحية أمام كلِّ فردٍ يقابله حَتَّىٰ يحظى باحترام هٰذا الآخر... ولا أظنَّ أبداً أنَّ **ديدرو** ممن تنطبق عليهم هٰذه الأوصاف، أو علىٰ الأقل التَّاليين. وإنَّما الَّذي دفع فيلسوفنا إلىٰ الاستعداد لدفع حياته ثمناً لاحترام حرية الآخر هو واقعهُ السَّلبي المتردِّي وإرادة الانقلاب علىٰ هٰذا المواقع للانتقال به إلىٰ واقعٍ أفضل وأسمى هو واقع التَّحضُّر والتقدُّم الَّذي يعرف كلُّ واحدٍ فيه كيف يحترم حرية الآخرين، ويكون نصيب كلِّ واحدٍ فيه أن يحترمه الآخرون. هٰذا الواقع هو الواقع الَّذي يرتقي فيه مستوى الوعي الفردي العام، وتسمو روح المجتمع/ الأمَّة إلىٰ مستوى إحساس الجميع بمسؤولياتهم كلُّ واحدٍ منهم تجاه نفسه وغيره ومجتمعه وأمته.

بحسبةٍ صغيرةٍ نستنتج أنَّ مجتمعنا وأمتنا بعيدة عن مستويات الوعي والمسؤوليَّة هذه الَّتي تسمح أو تفرض أن نسمي مجتمعنا مجتمعاً متحضِّراً، فالتَّحضُّر ليس سكن الشُّقق بدل الخيام، ولا ركب الفاره من السَّيَّارات بدل الجمال، ولا استخدام كلِّ ما يستخدمه المجتمع المتحضِّر من وسائل وأدوات وتقانات... وإنَّما هو صنع ذٰلكَ كله باليد بدل استيراده واستهلاكه مع امتلاك

الأرضيَّة المنتجة لهٰذا الإنتاج والصنع وليس إنتاج ذٰلكَ أو صنعه بالاتكال والتواكل والاعتماد علىٰ الآخرين.

إذا تحقَّق ذٰلكَ كان المجتمع متحضِّراً متقدماً، وتكاملت له أسباب الحضارة والقوَّة في بناه المختلفة والمتعدِّدة، وانعكس ذٰلكَ في البنى النفسيَّة والاجتماعيَّة للمجتمع وأفراد المجتمع، أو رُبَّما يصح القول إنَّ هٰذه البنى النَّفسيَّة والاجتماعيَّة للمجتمع وأفراده تكون هي الَّتي قادت إلىٰ هٰذا المستوى من وعي المجتمع/ الأمَّة وتكون من ثَمَّ قد انصقلت وصنعت وعيها الحضاري؛ النَّفسي والاجتماعي والأخلاقي الجمالي والاقتصادي والسياسي...

من البداهة بمكان مرَّةً ثانية أنَّ روح مجتمعنا/ أمتنا أبعد ما يكون الآن عن هٰذا المستوى من الوعي. ليس ذٰلكَ جلداً للذَّات، ولا رؤية معصوبة العينين، وإنَّما هو الواقع الَّذي يتعذَّر علىٰ من يقرأه أن يقول غير ذٰلكَ.

ماذا يعني ذٰلكَ؟

هل يعني ذٰلكَ تسويغ الخطأ؟

هل يعني القبول باستمرار الخطأ ريثما يرتقي مستوى الوعي الحضاري للمجتمع والأمَّة؟

الحقيقة إنَّنا أمام مشكلةٍ قد يصعب فهمها ولٰكنَّ ذٰلكَ ليس بالمعضلة، وهي أنَّ فهم الحالة أو الظاهرة لا يعني القبول بها. وحَتَّىٰ نتجاور أيَّ مشكلة لا بدَّ لنا بداية من فمهما. وفهم الظاهرة وتفسيرها ليس تسويغاً لها بحالٍ من الأحوال، إلا لمن أراد أن يساوي بَيْنَ الفهم والقبول، وبَيْنَ التَّفسير والتَّسويغ.

انطلاقا من فهم واقع مجتمعنا يمكن أن نفهم لماذا يغيب احترام الآخر والاعتراف به وبحريَّته في الموقف والرأي والاعتقاد... ولماذا يرى أيُّ واحدٍ منا، مع

حفظ الاستثناءات وهي نادرة، أنَّ موقفه هو الصَّحيح وكذٰلكَ رأيه واعتقاده، فيما كلٌّ من عداه علىٰ خطأ وضلالٍ مبينٍ. ولٰكنَّنا نجد مضاضةً من محاولة أيِّ واحدٍ أن يفرض قناعته على غيره فرضاً بأي طريقة من الطرق... لأنَّ الفرق كبيرٌ بَيْنَ عدم الاعتراف بالآخر وبَيْنَ فرض رأيك وموقفك عليه فرضاً. ففي الحالة الأولىٰ؛ حالة عدم الاعتراف بالآخر، نحن أمام نوعٍ من الانغلاق علىٰ الذَّات والتَّقوقع عليها، أمَّا في الحالة الثانية؛ حالة فرض الموقف علىٰ الآخر، فنحن أمام اعتداء صريح علىٰ الآخر. هنا نحن أمام المنطق الَّذي لا يغير من واقع إلىٰ واقعٍ آخر، هو ذاته في المجتمع المتخلِّف والمجتمع المتحضِّر، عند الكبير والصَّغير، ولذٰلك لا نحتاج إلىٰ معجزة لفهم أنَّنا إذ نفرض أو لا نقبل إلا أن نفرض رأينا علىٰ الآخر إنَّما نقوم باعتداء عليه لأنَّنا نمارس فعلاً إكراهيًّا علىٰ الآخر. وعلىٰ الرَّغْمِ من ذٰلكَ نجدنا في صدرنا من الرحابة ما يكفي لاستيعاب هٰذه الظَّاهرة وفهم نفسيَّة صاحبها ومنحه الأعذار في ذٰلكَ.

ولٰكنَّ هٰذا الفهم والتماس العذر لا يعني القبول بهٰذه الممارسة وإنَّما هو موجب للعمل علىٰ الارتقاء بمستوى الوعي من أجل الوصول إلىٰ الوعي الحضاريِّ الَّذي يستوعب فيه الجميع بعضهم بعضاً، ويؤمن فيه الجميع بحقوق بعضهم بعضاً لأنَّ هٰذا الإيمان بحقِّ الآخر هو في حقيقته وجوهرة إلزام للأخر بالإيمان بحقي.

ولكن إذا قبلنا ذٰلكَ كلِّه وأمثاله ونظائره والتمسنا له العذر تلو العذر أو قبلنا له عذراً واحداً فإنَّ ثَمَّة ما يمكن قبوله في أيِّ زمان وأيِّ مكانٍ بل في أيِّ واقع عقليٍّ ممكنٍ. وهٰذا الَّذي لا يمكن القبول به بأيِّ حالٍ من الأحوال هو أن نعدَّ السير في ركاب العدو، علىٰ صراحة العدو في عداوته ووضوح ذٰلكَ، والعمل

بأوامره وتعليماته... هو البطولة والعمل المشرِّف. ومثل ذٰلكَ وإن قلت شدته أو كثرت أن نعدَّ العاملين أو الساعين لمصلحة مجتمعهم وأمتهم... مأجورين أو مسيسين أو رجعيين أو متخلفين أو رُبَّما عملاء للسُّلطة، أو غير ذٰلكَ من هٰذه السلسلة الدلاليَّة المتقاربة المعنى والمتجاورة الدلالة.

أمران كلاهما يضعان لعقل في الكف. ويجعلان المرء حائراً حيرة الحليم الحكيم الَّذي ضاقت لديه الفكرة وانعدمت عنده الحيلة.

رُبَّما أمَّتنا وحدها الَّتي تمتعت بهٰذه الظاهرة؛ ظاهرة تمجيد العمالة للعدو وإدانة الإخلاص للأمَّة. وجدنا مع انهيار الدَّولة الإسلاميَّة علىٰ أيدي المغول والتتار، واستمرت ردحاً من الزمان. وها هي اليوم تنبثق بقوَّة في عالمنا العربيِّ المعاصر، حَتَّىٰ تكاد تكون ظاهرةً عامَّةً نلتمسها في سلوكاتٍ كثيرةٍ ومواقف كثيرة، وللأسف الشَّديد فإنَّ وسائل إعلامنا ذاتها دون غيرها تتعامل مع الموقف والأفكار علىٰ هٰذا الأساس؛ وسائل إعلامنا العربيَّة الرسمية وغير الرسميَّة الَّتي لا نعرف من وراءها ومن أمامها تصور، وبكلِّ فجاجةٍ ووقاحةٍ، المأجورين الذين ينفذون التوجيهات والمصالح الأمريكية والإسرائيلية بأنَّهُم الديمقراطيون، أنصار حقوق الإنسان، دعاة العدالة، يمثلون الرأي العام حَتَّىٰ ولو كانوا لا يزيدون عن خمسة بالمئة... فيما الذين يرفضون هٰذا السُّلوك يصورون بأنَّهُم ظلاميون، متطرفون، مأجورون للسُّلطة، ناطقون بلسان السلطة، رعاع، دهماء، لا يمثلون الرَّأي العام حَتَّىٰ وإن كانوا يمثلون أكثر من تسعين بالمئة، يقولون ذٰلكَ علىٰ الرَّغْمِ منهم...

هٰذه الظَّاهرة تفشَّت في السنوات العشر الأخيرة بكثرةٍ مقرفةٍ وتدعو للإشمئزاز، وزادت علىٰ ذٰلكَ كثيراً منذ ما قبيل العدوان علىٰ العراق وحَتَّىٰ الآن

إلىٰ درجةٍ بات من الواجب التَّداعي السَّريع الملح للنظر فيها من مختلف وجهات النظر ومستوياته، والعمل علىٰ درء مخاطر هٰذه الظاهرة المنبئة بالخراب والدمار. ذلك أنَّهَا موجودة علىٰ المستويات الفرديَّة والجمعيَّة علىٰ حدٍّ سواء.

لا شكَّ في أنَّ لكلِّ واحدٍ حرية الرَّأي والموقف والاعتقاد والتَّعبير والسلوك. ولا يجوز لأحدٍ أن يمارس وصايةً علىٰ أحدٍ فيما يجب أن يقول أو يفعل أو يرى أو يعتقد... ولٰكن مهما كانت هٰذه الحرية مصونةً ومحصَّنةً أو مهما كان من الواجب تحصين هٰذه الحرية وصيانتها، ومهما كانت طبائع الفلسفات الَّتي تدعو إليها وتُنَظِّر لها... فإنَّ ثَمَّةَ حدوداً وآفاقاً لا يجوز تجاوزها ولا تعديها ولا الاعتداء عليها لأَنَّهَا تقود المجتمع الإنساني إلىٰ هاوية جدٍّ خطيرةٍ وجدٍّ سحيقةٍ إن لم تتعذَّر النَّجاة منها فمن المتعذَّر الشِّفاء من آثار صدمتها.

إنَّ عدم الاعتراف بوجود ضوابط وحدود لحرية الاعتقاد والموقف والسُّلوك والفعل... مهما كانت طبيعة ما يقف مراء الوجود، لن يعني تحول الإنسان إلىٰ بهيمة وحسب، ولن يعني تجرده من إنسانيته وحسب بل ستحول إلىٰ كتلة من الشَّرِّ لا حدود لها ولا آفاق.

يقول عامَّة الناس: «أخذ الإنسان العقل من الملائكة والغريزة من الحيوان. فإذا غلبه العقل كان أفضل من الملائكة. وإذا غلبته الغريزة كان أشد بهيمية من الحيوان».

هٰذا القول، بغضِّ النَّظر عما إذا كان هناك ملائكة أم لا، فإنَّ هذا القول يفتح لنا آفاق إدراك ما يؤدِّي إليه عدمُ وجود ضوابط للحرية بكلِّ معانيها ومستوياتها. لأنَّ الملاك في التَّصور الدِّيني يشبه أكثر ما يشبه الحاسوب الَّذي يعمل وفق البرنامج الَّذي وضع له لا يحيد عنه ولا

يبتعد، ولا يقتصد ولا يجدد. وكذٰلكَ شأن الحيوان فإنَّهُ يعمل بموجب الغريزة الَّتي تعادل برنامج الملاك؛ يأكل ويشرب وينام ويصحو ويسفد ويتلاقح ضمن برنامج غريزي محدَّد. بل نكاد نلمس عنده ضوابط أخلاقيَّة غريزية تضعنا أمام تساؤلاتٍ عريضةٍ. أمَّا الإنسان إذا طلَّق الضوابط والحدود فإنَّهُ سيخرج عن الإنسانية والحيوانيَّة معاً...!!

هٰذه الضَّوابط والحدود، في حقيقة الأمر، منطقيَّةٌ لا تحتاج إلىٰ جهودٍ أو معجزاتٍ لاكتشافها. وللأسف الشَّديد فإنَّ أمتنا في وقتنا الحاضر فقدت بوصلة المنطق حَتَّىٰ صارت عاجزة عن إدراك البداهات الَّتي لا يعجز عن إدراكها إلا من اختلت قواه العقليَّة وخرجت عربة عقله عن السِّكة!! فبات الصادق والوفي والمخلص والأمين... مشبوهاً ومداناً ومنبوذاً ومحقوداً عليه. فيما صار المخادع والكذوب والمخاتل والسَّارق والخائن والغدار... هو البطل والشُّجاع والمقدام وصاحب الحظوة الَّذي تتهافت عليه التقريظات والتكريمات والمكافآت.

هٰذه واحدة من صور مجتمعنا وأمتنا في العصر الراهن؛ القرن الحادي والعشرين. وصور السوء والرداءة كثيرة جدُّ كثير. فكيف سيكون لأمتنا مستقبل؟ وبأيِّ معنى يمكن أن يكون هٰذا المستقبل؟ وما هي معالم هٰذا المستقبل؟

أعذر المتشائمين. ولٰكن ينبغي ألا يغادر التفاؤل أذهاننا وسلوكاتنا وأفعالنا. ويجب أن يحفزنا ذٰلكَ علىٰ بذل أقصى الطاقات والجهود لتجاوز الأزمة والارتقاء بإنساننا وأمتنا.

هل تصلح الأمم المتحدة؟[٨٨]

قرنٌ كامل يلوِّح بيديه مودِّعاً، وسحابة النِّصف الأخير من هٰذا القرن هي عمر الأمم المتحدة، هٰذه الهيئة التي أسست إثر الحرب العالميَّة الثَّانية لتكون الحَكَمَ، والمحاكم، والمنتصف للمظلوم، والرَّادع للحروب ... لتكون الأم الرؤوم التي تذود عن ضعاف أولادها وتنتصف لهم، وتردع أقوياءهم وتمنعهم من التَّجني، وتحلَّ التَّنازعات فيما بينهم ... فهل أدَّت هٰذا الدَّور؟

لا نصادر علىٰ المطلوب، ولا نكون متسرعين إذا قلنا إنَّها لم تفعل شيئاً من ذٰلكَ أبداً، ولا غرو في ذٰلكَ لأنَّ هٰذه الأهداف النَّبيلة لا تعدو كونها أهدافاً شكليَّة تغطي أغراضاً مخالفة لها تماماً هي تحصين الأقوياء وتمييزهم وتعزيز هيمنتهم، وحماية الضُّعفاء بما يتناسب مع مصالح الأقوياء ويخدمها، وعلىٰ هٰذا الأساس يمكننا أن نفسِّر تاريخ هٰذه الهيئة الدُّوليَّة وقراراتها وتدخلاتها في مختلف بقاع العالم منذ تأسيسها وحتَّىٰ اللحظة الرَّاهنة من عمرها. ولسنا بحاجة إلىٰ تعداد تجليات الازدواجيَّة التي يعرفها أقلُّ الناس اهتماماً بالسياسة، بل أكثر النَّاس جهلاً في السياسة، ولا سيَّما في عالمينا العربي والإسلامي... إنَّه ضرب من الفضول أن نذكِّر بالقضية الفلسطينية، والعراقيَّة[٨٩]، وليبيا[٩٠]، والبوسنة

---

٨٨ ـ نشر هٰذا المقال تحت عنوان: **أمم متحدة للقرن الحادي والعشرين** في جريدة العهد ـ بيروت ـ العدد ٧٨٨ ـ الجمعة ٢٤ ذو القعدة ١٤١٩هـ الموافق لـ ١٣ آذار ١٩٩٩م. وهو أصلاً مقتطفات من كتابي: **الأمم المتحدة بَيْنَ الاستقلال والاستقال والترميم** ـ دار الفتح ـ دمشق ـ ١٩٩٣م.

٨٩ ـ المقصود مشكلة حصار العراق الظالم الذي قتل نحو مليون إنسان إثر أزمة اجتياح الكويت، وكل ذٰلكَ كان قبل احتلال الكويت الذي جاء بعد نشر هٰذا المقال بأكثر من أربع سنوات.

٩٠ ـ المقصود هنا أزمة لوكيربي وملحقاتها والتلفيقات وحصار ليبيا والحرب والعدوان الأمريكي عليها.

والهرسك[٩١]، وأفغانستان[٩٢]، وكوسوفو، والتَّطفل الأمريكي الدائم علىٰ مختلف دول العالم، وكذلك التَّطفل السوفياتي سابقاً...

المشكلة الحقيقيَّة هنا هي أنَّ الدَّعوات إلىٰ إصلاح هٰذه الهيئة لم تأت رد فعل على مسلسلها المشين منذ تأسيسها أو لنقل غير المشرف أو الخلبي في أقلِّ تقديرٍ، وإنَّما كانت انعكاساً مباشراً لسقوط الاتِّحاد السوفياتي، حَتَّىٰ محاولتنا السَّبَّاقة التي قدمناها مع مطالع التِّسعينات لم تبتعد عن هٰذا السِّياق.

بانهيار الاتحاد السوفياتي وقبله تداعي المنظومة الاشتراكيَّة لاح لبعض الدول إمكانية لعب دور استراتيجي بعوض ما كان يشغله الاتحاد السوفياتي فكانت مطالبة ألمانيا واليابان بالحصول علىٰ مقعد دائم في مجلس الأمن الدولي، مقترن بحقِّ النقضِّ. الأمر الذي حرَّض بعض الدول الأُخْرَىٰ علىٰ المطالبة بعدالة التَّمثيل القاري في هٰذا المجلس فكانت مطالبات مصر ونيجيريا والهند ومعها اليابان أيضاً، وإلىٰ حدٍّ ما الباكستان والأرجنتين والبرازيل والكاميرون. وفي الوقت ذاته كان المتخوفون من جور التفرد الأمريكي في قيادة العالم يقدِّمون أطروحات إصلاحيَّةً مختلفةً تتركز في مجملها حول الوصول إلىٰ أقرب ما يمكن من النَّزاهة في التَّعامل مع كل الدول والمشكلات، فاقترحوا لذٰلكَ إنشاء جيش خاصٍّ بالأمم والمتحدة ودعوا إلىٰ استقلالها من كلِّ هيمنة، ولا شكَّ في أنَّ المهيمن الأول علىٰ هٰذه الهيئة هو الولايات المتحدة الأمريكيَّة.

---

٩١ . المقصود هنا المجزرة التي ارتكبها الصرب بمسلمي البوسنة والهرسك بتواطئ عالمي مكشوف بما فيه الأمم المتحدة ذاتها.

٩٢ . المقصود هنا العدوان السوفيتي علىٰ أفغانستان ثمَّ الحرب الإعلامية والاقتصادية علىٰ طالبان قبل غزو أفغانستان علىٰ خلفية احداث الحادي عشر من أيلول المزعومة في ٢٠٠١م.

ولٰكنَّ الواقع لم يكن ملبياً للطموح أبداً، بل كان مخيِّباً للآمال تماماً، فاستئثار الولايات المتحدة بالهيمنة علىٰ هٰذه الهيئة كان محبطاً، ولٰكنَّ اليأس لم يتسرب إلىٰ النُّفوس أبداً. فعلىٰ الرُّغم من تحويل مطلب المقعد الدائم من كامل الحقوق إلىٰ مقعد شكليٍّ للطامحين الجدد، وعلىٰ الرُّغم من إحباط فكرة الجيش المستقل للأمم المتحدة قبل أن تناقش، وعلىٰ الرَّغْمِ من التَّعسف في الهيمنة علىٰ هٰذه الهيئة ... فإنَّ دعوات الإصلاح ما زالت قائمة، والاقتراحات تزداد وتتنوع. انطلاقاً من الحاجة الماسَّة إلىٰ إخراج الأمم المتحدة من بوتقة الهيمنة الأمريكيَّة بشكلٍ خاصٍّ، أقول بشكلٍ خاصٍّ لأنَّ تنقيتها من مآس الازدواجيَّة أمرٌ شبه متعذَّرٍ مادام الأقوياء هم الذين يحددون مسارها، ولا يستطيع الضُّعفاء أن يفعلوا شيئاً.

إنَّ أخطر ما تقع به الأمم المتحدة من آثام هو الازدواجيَّة في التَّعامل، وهٰذه الازدواجية ناجمةٌ عن الحقوق الامتيازيَّة للأقوياء أولاً، وعن قدرة الولايات المتحدة، والأقوياء، علىٰ فرض إراداتهم علىٰ الدُّول الأُخْرَىٰ بالضُّغوطات المختلفة؛ السِّياسية والاقتصاديَّة والعسكريَّة ... وهٰذا ما يشكِّل أكبر عائق وتحدٍّ وخطرٍ أمام أي إصلاح في هٰذه الهيئة أو مشروع إصلاح. وأعني بذٰلكَ أنَّهُ **حَتَّىٰ ولو تمَّت الإصلاحات فإنَّ شبح الازدواجيَّة وخطرها سيظلُّ مخيماً علىٰ العالم بعبئه الثقيل**. وستظلُّ حقوق الضعفاء وحرماتهم وأعراضهم منتهكة مخترقةً، وسيظلُّ الأقوياء يفرضون ما يشاؤون علىٰ العالم...

إن حدث الإصلاح وإذا لم يحدث فلن يتغير شيءٌ أبداً. ليس هٰذا تشاؤماً ولا يأساً، ولٰكنَّ منطق الواقع والتاريخ هو الذي يقول ذٰلكَ ويبرهنه، ولذٰلك **فإنَّ**

انتظار أمريكا أو أوربا لكي تصلح الأمم المتحدة بما يحقق العدل أو يدافع عن حقوقنا ويحصلها ليس إلا ضرباً من الوهم والأمل الخادع[٩٣].

فما الذي يجب فعله إذن ؟

سيان أصلحت الأمم المتحدة أم لم تصلح لن نستفيد شيئاً أبداً إلاَّ إذا كنا أصحاب قوَّةٍ قادرةٍ علىٰ تحصيل حقوقها بذاتها لا بغيرها، وكنَّا أصحاب قرار قادرٍ علىٰ الدِّفاع عن ذاته وعلىٰ فرض ذاته. ولذٰلك فإنَّ المطلوب قبل أن نفكر في إصلاح الأمم المتحدة أن نصلح ذاتنا لتصبح قويَّةً قادرةً علىٰ فرض إصلاحاتها علىٰ الأمم المتحدة بما يخدم مصالحها ويحفظها. ومن لم يتَّعظ بغيره وعظَ اللهُ به.

وهم الطريق الثالث[٩٤]

لا شكَّ في أنَّ انهيار الاتِّحاد السوفياتي هو الذي خلط أوراق الموازيين الدوليَّة، وأربك معايير التَّوازن والاستقرار العالميين. ولٰكن ليس انهيار الاتحاد السوفياتي هو الذي أولد الخيارات والبدائل المطروحة سيان كانت من قبل الأطراف المهمَّشة أو المحيدة أو من الأقطاب الكبرى، وإن كنَّا لا نستطيع إنكار أنَّ لهذا الانهيار دوراً في رفع وتائر طرح البدائل والخيارات من قبل الأطراف كلِّها. ذٰلكَ أنَّ معايير الحضارة، وإن تغير بناتها، واحدة من جهة المبدأ.

---

٩٣ . قلت لهذا الكلام في كتابي: **الأمم المتحدة بَيْنَ الاستقلال والاستقال والترميم** . الصادر عام ١٩٩٣م، أي قبل سبع سنوات من نشر هٰذا المقال، وقبل نحو ربع قرن من نشر هٰذا الكتاب... وحَتَّى الآن فإنَّ هٰذه سيدة الموقف مع كل المآسي التي مرت بها البشرية وخاصة الشرق العربي المسلم.

٩٤ . نشر هٰذا المقال تحت عنوان: **الطريق واحدة والبدائل واهية** . مجلة؛ الوفاق العربي . تونس . العدد الرابع . تشرين الأول/ اكتوبر . ١٩٩٩م.

صحيحٌ أنَّ مفهوم أو اصطلاح الحضارة متشعب الأبعاد والمعاني إلا أنَّ المدلول واحدٌ، ومن ثمَّ مهما اختلفت تعريفات الحضارة فإنَّ أحداً لا يستطيع إنكار أنَّهَا مقترنةٌ دائماً بالقطب أو المركز الذي يقود دفَّة العالم في مرحلة من المراحل حَتَّىٰ اقترنت مراحل التَّاريخ ذاته وعصوره بالحضارات، وليست هٰذه الحضارات بالكثيرة علىٰ أيِّ حالٍ، والخلاف في عددها ومسمياتها بسيطٌ علىٰ أيِّ حالٍ أيضاً. والذي يهمنا هنا، وبمزيدٍ من الاختصار هو ما تقوم الحضارة به وعليه، ومن خلال نظرة عجلىٰ إلىٰ الحضارت أو المراحل السابقة، والمرحلة الحالية، يمكننا القول:

ثمَّة في كلِّ مرحلة تاريخيَّةٍ حاملٌ حضاريٌّ تضطلع به أمَّة من الأمم؛ واحدة علىٰ الأقل وقلَّما قلَّما زادت عن اثنتين، وفي الأحوال كلها تكون أمَّة واحدة لا أكثر هي صاحبة قصب السبق والتفوق والريادة التي تتفاوت تبعاً للظروف والمعطيات التاريخية المرافقة، ولذٰلك قلَّما دامت أو تدوم القطبية الثنائية كثيراً. ذٰلكَ أنَّ الحضارة بالدرجة الأولى محصلة تلاقح القوى الصاعدة في الأمَّة، التي تقود الأمَّة إلىٰ مصاف مختلف ضروب القوَّة من أجل تحقيق مصالحها، وهي في المحصلة متواشجة متمازجة مع مصالح الأمة، والحضارة بما هي هٰذه المحصلة فإنَّها وثيقة الآصرة مع رؤيةٍ كونيَّةٍ شموليَّةٍ تعتقد أنَّها الحامل الصَّادق الصَّحيح للقيم الإيجابيَّة والإنسانيَّة الواجب سيادتها بَيْنَ البشر بوصفها الأنموذج الأمثل للحياة المثلىٰ، ولذٰلك تسعى بصيغ مختلفة من العدوان، والغزو، والتَّأثير، والضغط... من أجل فرض أنموذجها الحضاريِّ علىٰ مختلف شعوب العالم، وهٰذا ما يشهد به تاريخ الحضارات؛ الشَّرق القديم، اليونان وامتدادهم الرومان، العرب، الأوربيون، الأمريكان.

ولا يهمنا كثيراً هنا أن نقف عند مصداقية القيم التي تحملها هٰذه الحضارة أو تلك، وأساليب تعميمها. لأنَّ كل أمَّه تنطلق من حقيقة صادقة بالنسبة

إليها، وهي أنَّها علىٰ حق، حتَّى ولو اتَّفق العالم كله علىٰ بطلانها، والأدلة أيضاً أكثر من أن تعدُّ أو تحصى، يكفينا منها، علىٰ سبيل المثال، الممارسات الأمريكية الراهنة التي تفقأ عين المنطق والعقل بتناقضها وازدواجيتها... ولٰكنَّها في الوقت ذاته روح الموضوعيَّة والعقلانيَّة بالنسبة إلىٰ أصحابها الذين يتأفَّفون مضضاً من عجز الآخرين عن تقبلها. وهٰذا ما يقودنا مباشرة إلىٰ خصيصةٍ مهمَّةٍ من خصائص الحضارة، وهي أنَّ صاحب القوَّة هو صاحب الحقِّ لأنَّه هو الذي يعطي الحقَّ مضمونه ومعناه، بغضِّ النَّظر عما إذا كان حقًّا أم لا، وبغضِّ النَّظر عن اعتراف الآخرين به أو عدم اعترافهم به، إذ يكفي أن يعده القوي حقًّا، وهو هنا الدَّولة العظمى، حَتَّىٰ يتعامل معه علىٰ أنَّهُ حقٌّ، وأكرِّرُ بصيغةٍ أُخْرَىٰ: حتَّىٰ ولو مات المظلوم قهراً، أو ملأ صراخه الدُّنيا من مركزها إلىٰ حوافها. ففلسطين بالنسبة إلىٰ أمريكا وأوروبا هي إسرائيل علىٰ الرَّغْمِ من عدم اعتراف ثلاث أرباع العالم بها. والنِّفط العربي، سيان وجد الاعتراف بملكية العرب له أم لا، لا يحقُّ لأحدٍ أن يتصرَّف به بما لا يتوافق مع المصالح الأمريكيَّة، أو الغربيَّة بشكل عام...

وبناء علىٰ ذٰلكَ ليس هناك، دائماً، إلا طريق واحدة هي الطريق التي تختارها الدَّولة العظمى، دولة الحضارة، الأمَّة الرائدة، وعلى العالم أن يتقبلها شاء أم أبى، علىٰ الأقل من منظور الأمة الرائدة، لأنَّ الأمم الأُخْرَىٰ تظلُّ في حالة تتراوح ما بَيْنَ الخنوع، والتأفف، والتقوقع، والسَّعي بصيغ مختلفة للخروج من بوتقة هيمنة الدَّولة العظمى، لأنَّ المصالح متقاطبة، أو متعارضة بالضرورة بَيْنَ الأمة الرائدة والأمم الأُخْرَىٰ، وعند هٰذه النقطة تماماً يمكن الحديث عن الطرق البديلة أو الخيارات التي لا تنفكُّ الأمم الضعيفة أو المهمشة ... عن طرحها.

ولٰكنَّ هٰذا الطرح دائماً طرحٌ ضعيفٌ يشبه حوار الطرشان (الصم) فهو حوار من طرف واحدٍ يتوهم أن الطرف الآخر يصغي إليه، ولٰكنَّه في حقيقة الأمر لا يفهم منه إلا ما يريد أن يفهمه، وعلىٰ النحو الذي يريده أن يكون. لأنَّ الأمم الضعيفة أو المهمشة في حقيقة الأمر لا تملك أكثر من الطرح، الاقتراح، الرجاء ... بَيْنَما الأمة العظمى، في مرحلتها، لا تقترح ولا ترجو لأنَّها تفعل ما تريد من غير مشورة أو انتظار، تسير في الطَّريق التي شقتها لنفسها وتجر العالم وراءها، سيان شاءت الأمم الأُخْرَىٰ أم رفضت لأنَّه لا يوجد بدائل أُخْرَىٰ... بل علىٰ الأمم الأُخْرَىٰ أن تبحث عمَّا يسوغ لها تصرفاتها وسلوكاتها، وإن لم تكن موجودةً فعليها أن توجدها.

ولذٰلك ليست المسألة مسألة حديث مشروع أو غير مشروع عن طريق ثانيةٍ أو ثالثةٍ لأنَّ المشروعيَّة أو عدمها لا تقدِّم ولا تؤخِّر، في الأمر شيئاً، إنَّ الذي يجب الحديث عليه هو: ما المشروع الذي تحمله أمَّتنا، ولا تهمنا الأمم الأُخْرَىٰ، من أجل النُّهوض وامتلاك زمام الأمور، من أجل أن نكون أقوياء ونفرض حقوقنا فرضاً.

وهم العدالة الدولية[٩٥]

يشيع علىٰ ألسنةِ العامَّة من النَّاسِ والخاصَّة مثلٌ لطيفٌ يقول: «كلبُ الأمير أميرٌ»، وقد جاءت أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ لا لتؤكِّد هٰذا المثل بل لتمسحه بمسحةٍ شموليَّةٍ يغدو معها كلُّ ما يتصلُ بالأمير أميراً، ولتبرز من جديدٍ وبقوَّةٍ تلك المناقشاتُ الَّتي أرادت البحث عن علاقة القوة بالحقِّ تحت

٩٥ . نشر هٰذا المقال تحت عنوان: **العدالة الدولية؛ أمنية الفقراء وأسطورة الأقوياء** . مجلة الوفاق العربي . تونس . العدد ٣٠ .كانون الأول ٢٠٠١م.

مسـمَّياتٍ مختلفـةٍ متنوَّعـةٍ، ولٰكِنَّهـا في عودتهـا الآن وإن كانـت قويَّـةً إلا أنَّهَـا اتَّسمت بشيءٍ من الخوف والخجل الذي يعبِّرُ عن عمق المأساة وخطورة الأزمة.

وبالطَّريقـة الاسـتدلالية ذاتهـا يمكـن القـول إنَّ أحـداث الحـادي عشـر مـن أيلول قَدْ أفرزت طائفةً من الأفكار والاصطلاحات الجديدة الَّتي لا تقلُّ خطورةً عن خطورة الأحداث ذاتها، ولا تقلُّ قوَّةً عن قوَّة الولايات المتحدة الأمريكية الَّتي كانت محور هٰذه الأحداث.

كلُّ ذٰلكَ أمرٌ طبيعيٌّ ولا يمكن لأحدٍ أن يعيبه أو يطعن في شرعيته، فمن البداهـةِ بمكـانٍ أن يكـون الفـرقُ كبـيراً أو هـائلاً بَـيْنَ الموضـوعات تبعـاً لعظمهـا وأهمِّيَّتِهـا، فمـوت الإنسـان العـادي بأيِّ طريقـةٍ لـن يشكِّلَ أيَّ تـأثيرٍ علىٰ سيرورة المجتمـع أو التَّـاريخ، ولٰكـنَّ مـوت العظيـم أو القائـد الفـذِّ في أيِّ أمَّـةٍ بـأيِّ وسيلةٍ يشكل منعطفـاً تاريخيًّا في حيـاة هٰـذه الأمَّـة علىٰ الأقل، ورُبَّمـا في سيرورة التـاريخ البشري كلِّه. ومن ثمَّ فإنَّ أحداث الحادي عشر من أيلول الَّتي هزَّت العالم كلَّه وستقلب التوازنات رأساً علىٰ عقب، وستغيِّر معظم الخرائط السِّياسيَّة والجغرافيَّة والاقتصاديَّة في العالم، كان من الممكن ألا تؤدِّي إلىٰ أيِّ شيءٍ من ذٰلكَ لو أنَّهَا أصابت أمَّةً أُخْرَىٰ[٩٦].

علىٰ هٰـذا الأسـاس طُرِحَـتْ مشـكلات: الإرهـاب، والعنـف، والتطـرف، والديمقراطيَّة، والحريَّة، والعدالة، والعدالة الدوليَّة... وغير ذٰلكَ من القيم والمعايير. والحقُّ أَنَّهُ ليس ثَمَّةَ شيء جديدٌ في هٰذا الطَّرح والأساس الذي قام عليه، لأنَّنا إذا رجعنا إلىٰ تـاريخ الحضـارات والشـعوب وجـدنا أنَّهـا كلهـا كانـت تقـوم علىٰ هٰـذا

٩٦ . كتب هٰذا المقال عقب أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١م ونشر بعد نحو شهر تقريباً، وكانت التوقعات التي توقعتها تماماً منذ ذٰلكَ الحين إلىٰ تاريخ نشر هٰذا الكتاب.

المبدأ أو الأساس؛ القوي هو الذي يفرض إيقاع فكره وقيمه وأخلاقه ومبادئه... علىٰ الآخرين بالصُّورة الَّتي يراها ويقبل بها. وفي كلِّ طورٍ من أطوار الحضارة كانت العدالة الدوليَّة (وغيرها من القيم) هي العدالة الَّتي تطبقها الدولة الأكثر قوَّة، وهي كلُّ ممارسة من أي دولةٍ تصبُّ في مصالح الدولة الأكثر قوَّة ولا تتعارض معها، ولا أظنُّ أنَّ الاقتناع بهٰذا الحكم يحتاجُ إلىٰ أكثر من مراجعة صغيرة لما مضى من تاريخ الأمم والشعوب في الإطار العام.

ومن ذٰلكَ نجد أنَّ العدالة الدوليَّة موجودة بمعنى أو بآخر، ولٰكنَّ المشكلة تكمن في أنَّها تحتاج إلىٰ اعتراف المظلومين بأنَّها عادلة. وتستوي في ذٰلكَ كلُّ ميادين تطبيق هٰذه العدالة ومستوياتها بَيْنَ الدُّول، كما يستوي في ذٰلكَ القائمُ علىٰ تطبيق هٰذه العدالة سيَّان أكان دولة بعينها، أم منظمة دوليَّة واحدة أو أكثر كالأمم المتحدة علىٰ سبيل المثال. لأنَّ أيَّ منظمة دوليَّة بالمعنى الاصطلاحي ليست إلا تنظيماً يضع أسسه وقواعده وصلاحياته وغاياته... مجموعةٌ من الأطراف المتفاوضة الَّتي سيكون نصيب كلٍّ منها من النفوذ والمصلحة في هٰذه المنظمة ما تستطيع أن تفرضه بالقوَّة، ولتصبح العدالة الَّتي تحقِّقها هٰذه المنظمة هي عدالة القوَّة أو الأقوياء، وتكون هٰذه العدالة شرعيَّةً بقدر ما يعطيها القويُّ أو الأقوياء من الشَّرعيَّة.

من البداهة بمكانٍ هنا أنَّ العدالة الدوليَّة بهٰذا المعنى لن تستطيع تحقيق العدالة المطلقة، بل لن تكون عادلةً أبداً، لأنَّها، من الناحيتين النَّظريَّة والعمليَّة، لن تنصف جميع الأطراف في وقت واحدٍ، ولا سيما أن العلاقة القائمة بَيْنَ هٰذه الأطراف قائمة علىٰ التَّنافس والصِّراع وتناقض المصالح أو علىٰ الأقل عدم

توافقها. وعدم التَّوافق هٰذا هو أساس عدم إمكان أن تكون العدالة الدولية عادلةً.

من هنا ننطلق إلىٰ إمكان أن تكون العدالة الدولية عادلةً، في أيِّ ميدانٍ من ميادين تطبيقها وأيِّ مستوى من مستوياتها.

في إطار ما مضى من التَّاريخ وحَتَّىٰ اللحظة الراهنة لا توجد عدالةٌ دوليَّةٌ عادلةٌ، وهٰذا يعني أَنَّهُ لا توجد عدالة دوليَّة تستحقُّ أن تسمَّىٰ عدالةً، ولٰكنَّ الواقع الراهن يشهد ظهور أطروحات تزعمُ أنَّ البشرية تتجه لتكون تحت راية حكومةٍ عالميَّةٍ واحدةٍ، وقيمٍ واحدةٍ، وأخلاقٍ واحدةٍ، وعادات واحدةٍ... بما يعني أنَّ تضارب المصالح والتَّنافس والصِّراع أمور في طريقها إلىٰ الزوال، ومن ثمَّ فإنَّ موجبات وجود الظُّلم، من النَّاحية النظريَّة، في طريقها إلىٰ الزوال... فإذا ما كان هٰذا الزَّعم صحيحاً، وأنَّ العالم فعلاً في طريقه إلىٰ هٰذه الوحدة فإنَّ العدالة الدوليَّة ستكون ممكنةً من النَّاحية النَّظريَّة، ولٰكن ليس من الضَّروريِّ أن تتجسَّد واقعيًّا، مع عدم وجود ما يمنع ذٰلكَ من النَّاحية النَّظرية وربَّما الواقعيَّة.

ولٰكن هل يمكن أن تصل البشريَّة إلىٰ هٰذا المستوى فعلاً؟

لن نقف هنا عند الأسباب والدوافع والتفاصيل الَّتي أدت إلىٰ وجود مثل هٰذه المزاعم، وكلُّها في اعتقادنا واهيةٌ لا قيمة لها. ولٰكنَّنا لا نظنُّ أبداً أنَّ هٰذا الطُّموح أو الطَّمع قابلٌ للتَّطبيق، أو للتَّجسُّد الواقعيِّ، لأنَّهُ حَتَّىٰ وإن كان كلُّه قائماً علىٰ نبل المبادئ وسموها... فإنَّهُ يتنافى مع تناقضات الطَّبيعة البشريَّة، وتناقضات الاعتقادات والانتماءات والولاءات بكلِّ طبائعها ومستوياتها...

قَدْ نحتاج إلىٰ إثبات أنَّ العلاقات القائمة بَيْنَ الدول قائمةٌ علىٰ التَّنافس والتناقض وعدم توافق المصالح، ليكون حكمنا هٰذا صادقاً.

ولٰكِنَّ واقع الحال يشهدُ بهٰذه الحقيقة إلىٰ الحدِّ الذي يعفينا هنا من البرهان وهو ليس عسيراً علىٰ أيِّ حالٍ. ويكفينا من ذٰلكَ ما تحاول الولايات المتحدة فرضه علىٰ الآخرين شاؤوا أم أبوا من أنَّ إنسانها هو الإنسان الأصل وإنسان غيرها هو المسخ، وأنَّ قيمها هي القيم الحقيقيَّة وقيم غيرها هي البهتان، وأنَّ عدالتها هي العدالة وعدالة غيرها هي شريعة الغاب، وأنَّ «ميِّتَها ميتٌ وميتُ الآخرين كلبٌ».

غباء مطالبة الاستعمار بالاعتذار[٩٧]

منذ نحو عشرين سنة قلت في لقاء صحافي «انتظروا أن يطالب اليهود بحقوقهم في السعوديَّة جرَّاء تهجيرهم من الجزيرة العربية»، وكان السَّبب في ذٰلكَ أنِّي شممت رائحة تصعيد فكرة الاعتذار عن جرائم الماضي، بغضِّ النَّظر عمَّا إذا كانت جرائم أم لا، المهم أن الغرب يسميها جرائم أو مجازر ويستطيع أن يفرض علىٰ القانون الدولي تسميتها بالجرائم أو المجازر.

وعزمت منذ ذٰلكَ الحين علىٰ كتاب مقال أو بحثٍ تحت عنوان إحياء مجازر وإماتة مجازر للكشف عنا توقعته من مساعٍ غربية لإحياء «مجازر» ارتكبت منذ مئات السنين ومحاسبة الشُّعوب الوريثة علىٰ تلك «المجازر»، في حين أن المجازر التي يرتكبها الغرب والصهيونية علىٰ مرأى من الأعين تمرُّ وكأنَّهَا خدمة للبشريَّة.

ظلَّت مسودة المقال علىٰ ورقة باتت اليوم صفراء، وبعد مضي نحو عشر سنوات بدأت هٰذه الفكرة بالظهور الفعلي وأكثر ما تجلت بمطالبة الأتراك

٩٧ . نشر هٰذا المقال تحت العنوان في مواقع التواصل الاجتماعي في ٢٠١٠/٢/٢٨م.

بالاعتذار عن جرائمهم في حقِّ الأرمن علىٰ الرَّغْمِ من مضي أكثر من مئة سنة، في حين أنَّ المجازر التي ارتكبتها الولايات المتحدة في وقت مطالبة الأتراك بالاعتذار كانت تعدها الأمم المتحدة تحريراً للبشرية من الظلم، وفي حين أن المجازر التي ترتكبها الصهيونيَّة أمام آلات التَّصوير والفضائيَّات تمرُّ وكأنَّهَا تخويف مازح لفئران تستحقُّ الصهيونيَّة التَّصفيق عليها.

المفاجئ أنَّ جهة المحاسبة والمحاكمة تحولت فجأة من جهة الغرب باتجاه الشَّرق إلىٰ محاسبة الشَّرق للغرب ومطالبته الاعتذار عن فترة الاستعمار.

والأكثر مفاجأة هو أنَّ الغرب تعامل مع هٰذه المطالبة بنوعٍ من التَّجاوب والرِّضى علىٰ الرَّغْمِ من العنجهيَّة الغربيَّة والكبر الغربي وإيمانه بأنَّ من واجبه الأخلاقيِّ والإنسانيِّ سحق الشرق!!

هل وقع العرب في الفخ؟

سأسميه فخًّا ولن أسميه اندرجاً في اللعبة الغربيَّة التي تخطط للأمام كثيراً، لقد استهوت الفكرة العقيد **معمر القذافي** وحصل علىٰ الاعتذار والتعويض نوعاً ما، ثمَّ تبعته دول المغرب العربي علىٰ نحوٍ خاصٍّ، وصارت مطالبة الاستعمار بالاعتذار أدروجة علىٰ صفحات الصحافة ووسائل الإعلام العربيَّة، متخيلة أن العرب يحقِّقون الانتصار تلو الانتصار بمطالبة الاستعمار بدفع التعويضات والاعتذار.

لم يفكِّروا ولو للحظة ماذا سيأتي بعد حصول بعض الدُّول العربيَّة علىٰ التَّعويضات والاعتذار من الاستعمار عن حقبة الاستعمار.

لم يحسبوا حساب اللحظة التي ستفتح أوراق محكمة لاهاي لمحاسبة العرب علىٰ حروبهم ضدَّ أوروبا واحتلال بعض الدُّول الأوروبيَّة مئات السِّنين.

سيقول بعضهم: ليس هناك ما يحاسب عليه العرب.

هٰذا صحيح، ولٰكن من وجهة نظر العربي وحده، أمَّا أوروبا فلا تنظر من هٰذه الزاوية أبداً. تذكروا أنَّ الجنرال **غورو** عندما دخل دمشق اتجه أوَّل اتَّجه إلىٰ الجامع الأمويِّ ووضع رجله علىٰ قبر **صلاح الدين الأيوبي** وقال له:

«لقد عدنا يا **صلاح الدين**».

هل في هٰذا ما يكفي؟

أم يحتاج القول إلىٰ تفصيل؟

الفصل الرابع

هستريا الغرب
من عودة الخلافة الإسلامية

لم يستح الغرب أبداً من التَّصريح بأنَّهُ لا يمكن أن يسمح بإقامة دولة الخلافة الإسلاميَّة، بل إنَّهُ يريد أن يقضي علىٰ هٰذا الحلم في رؤوس المسلمين. عضو الكونچرس الأمريكي السيناتور **جوزيف ليبرمان** قال ذٰلكَ بوضح وصراحة لا لبس فيها في تصريح له لوول ستريت جورنال: «نستطيع أن ندعم المعتدلين لجعل أفغانستان مقبرة للقاعدة تُدفن فيها أحلام الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة».

.

تمهيد

من أكبر معضلات الغرب وأشدها في مواجهة الإسلام أنَّ مواجهاتهم علىٰ جبهاتٍ مفتوحةٍ معلنةٍ غير محدودةٍ ولا معدودةٍ وعلىٰ جبهات تصوُّريَّةٍ مفتوحةٍ علىٰ الآفاق المتوقَّعة، وجبهةٍ مفتوحةٍ علىٰ الاحتمالات التي لا تكون في الحسبان مما يطرأ بَيْنَ الحين والحين من مستجدَّاتٍ انعكاساً أو ردَّ فعلٍ أو غير ذٰلكَ تجاه الغرب والسِّياسة الغربيَّة.

علىٰ أنَّ الجامع لذٰلك كلِّهِ فكرتان أساسيتان الأولى عدم السَّماح بقيام دولة الخلافة الإسلاميَّة مهما كلَّف ذٰلكَ من ثمنٍ. والثَّاني عدم السَّماح بنهضة المسلمين ولا توحدهم تحت أيِّ سقفٍ من السقوف.

هستيريا عودة الخلافة[٩٨]

الخلافة ليست نظام الحكم الإسلامي الوحيد، ولا الواجب، ولا النَّافل... هي نظام حكمٍ من عشرات أنواع أنظمة الحكم التي لا تتعارض مع الإسلام ولا يعارضها الإسلام...

ولٰكنَّ الخلافة هي البعبع الذي يخاف الغرب من انتشار فكرته بَيْنَ المسلمين أكثر مما يخاف من المسلمين...

ولذٰلك استنفرت أمريكا كلَّ جهودها والعالم معها وأحداث الحادي عشر من أيلول للقضاء علىٰ الخلافة في أفغانستان علىٰ الرَّغْمِ من أنَّها لا تهش ولا تنش... ولٰكنَّ فكرة أنَّ هناك خلافة إسلاميَّةٌ قائمةٌ يجلب الضَّجر والقلق والأرق والصُّداع والسَّرطان لهم ولذٰلك هي أمر لا تسمح به السِّياسة الغربيَّة مهما كلفها ذٰلكَ من ثمن.

كتبت هٰذا الكلام جزءاً من سياق بحث في أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١م، وهو جزء من كتابي الذي نشر في عام ٢٠٠٣م تحت عنوان: تفجيرات أيلول وصراع الحضارات.

كانت الحرب علىٰ الخلافة الطالبانية في أفغانستان.

اليوم أبو بكر البغدادي يستفز العالم من جديد بإعلان الخلافة.

---

[٩٨] . نشر هٰذا المقال في أوائل الشهر السابع من عام ٢٠١٤م في عدد من مواقع الإنترنت والتواصل الاجتماعي. وهو مقتبس من كتابي: تفجيرات أيلول وصراع الحضارات الذي صدر في عام ٢٠٠٣م. وتلوته بتعليق علىٰ ما استجد.

كثر اللغط والكلام في ذَلكَ، ولٰكن حسبكم قراءة وجوه قادة الغرب والعرب بعد إعلان الخلافة وبعد خطبة البغدادي لتعرفوا مدى الهلع والفزع الذي يأكل وجوههم.

هٰذا الإجراء سيجرُّ المنطقة إلىٰ أحداث ضخامٍ ما لم تستطع أمريكا والدُّول الإقليميَّة اتِّخاذ إجراءاتٍ تمتصُّ الحدث وتستوعبه بطريقةٍ أو بأُخْرَىٰ، وخاصَّةً بإثارة نقمة النَّاس علىٰ الخلافة وجعل أبناء المنطقة أنفسهم يحاربون الخلافة.

علىٰ أيِّ حالٍ كلُّ آتٍ قريبٌ فلا تستعجلوا.

اليوم تبدو الحرب علىٰ الخلافة أشدَّ ما كون من الوضوح. وقد صرَّح **أوباما** علناً قائلاً: «لا يمكن أن نسمح بقيام الدولة الإسلامية»، الحرب علىٰ الدَّولة الإسلاميَّة هي حرب علىٰ الخلافة، أكثر ما أرعبهم وأثارهم وحشدهم هو إعلان الخلافة، ومنذ ذَلكَ اليوم تابعنا التَّصريحات الأمريكيَّة والغربيَّة التي توحي بالاستعداد للقضاء عليها، ولم يكن القصف الذي تمارسه أمريكا من أجل الأكراد، الأكراد كانوا الحجة التي باشروا من حربهم من خلالها.

تصاعد فوبيا الخلافة الإسلامية

كرة الثلج التي تدحرجت وراحت تكبر علىٰ نحو مدهشٍ رُبَّما غير مسبوقٍ في تاريخ تركيا الحديث، ورُبَّما في تاريخ الدول الإسلاميَّة الحديث باستثناء الظَّاهرة الماليزيَّة...

لم تكن مدهشةً، كانت مثيرةً للإعجاب والتَّقدير ولٰكنَّهَا لم تكن غير متوقَّعةٍ، وهٰذا السَّبب عينه كان الْمُحدِّد لانعكاسات نجاح حزب العدالة والتَّنمية في السُّلطة، وقد بدا ذَلكَ في محورٍ أساسيٍّ وإن تعدَّدت مسارات تطبيقه.

لا نستبق القول إذا كثَّفنا هٰذا المحور هنا بالقول إنَّ انعكاسات هٰذا النَّجاح المبهر، بل حَتَّىٰ ولو كان نجاحاً عاديًّا، تركزت في عدم السَّماح بتكرار تجربة نجاح القوى الإسلاميَّة في السُّلطة. بل وعدم السَّماح لها بالوصول إلىٰ السُّلطة مرَّةً أُخْرَىٰ.

في هٰذا السِّياق لدينا تجربتين صريحتين علىٰ الأقل. الأولى إسقاط حكم الأخوان في مصر، والثَّانية محاولة إسقاط حكم العدالة والتنمية في تركيا. ولٰكنَّ الأمر ليس متوقِّفاً هنا بكلِّ تأكيدٍ، فبالتزامن معهما كان إجهاض التَّجربة التونسية أيضاً علىٰ سبيل المثال علىٰ الرَّغْمِ من أنَّها ليست تجربة حكم إسلامي ولٰكنَّ الإسلاميين جزء فاعل في السلطة. وهٰذا ما سنبينه من خلال النِّقاط التَّالية:

لقد صار نجاح حزب العدالة والتَّنمية علىٰ مختلف الأصعدة وخاصَّةً الاقتصادي منها مضرب الأمثال في العالم الإسلامي والعربي علىٰ نحو خاصٍّ. مضرب الأمثال بمعنيين:

أولهما بما هو نجاح يستحقُّ الإشادة والتَّقدير لحزب حاكم مهما كانت طبيعته وخلفيتيه.

وثانيهما بما هو حزب ذو بعد إسلامي لا يلامس مشاعر المجتمع الإسلامي كما يقولون وإنَّمَا يعبِّر عن طموحات هٰذه المجتمعات الإسلاميَّة بأن تكون ممثلةً بأحزابٍ قادرةٍ علىٰ إثبات حضورها السِّياسي ودحض الادعاءات والشَّائعات التي يتم ترويجها عن عجز الإسلام أو الإسلاميين في قيادة الدَّولة قيادة ديمقراطيَّة.

الحقيقة أنَّ هٰذا النَّجاح لم يكن صدمةً ولا مفاجئاً لأنظمة الحكم في الدُّول الإسلاميَّة لأنَّهَا كانت متوقَّعةً ورُبَّما لا يُتوقَّع سواها، ولذلك كانت صاعقةً ووبالاً علىٰ هٰذه الأنظمة التي ما فتئت تحارب الأحزاب والحركات ذات الصبغة أو النَّزعة الإسلاميَّة بدعوىٰ الإقصائيَّة، ودعوىٰ العجز عن إدارة الدَّولة، ودعوىٰ فصل الدِّين عن الدَّولة وغير ذٰلكَ من دعاوىٰ. علىٰ أنَّ من أطرف الذرائع في محاربة الأحزاب الإسلاميَّة أنَّ الأحزاب الإسلاميَّة تسعىٰ إلىٰ السلطة، وكأنَّ الأحزاب العلمانيَّة والقوميَّة والإلحاديَّة تسعىٰ بَيْنَ الصَّفا والمروى علىٰ حد تعبير الإعلامي الدكتور **فيصل القاسم**.

كانت هٰذه التَّجربة النَّاجحة صاعقةً ووبالاً علىٰ الأنظمة العربيَّة والإسلاميَّة وحَتَّىٰ العالميَّة لأنَّهُ أثبت بطلان ادعاءاتها بأنَّ الأحزاب الإسلاميَّة ديكتاتوريَّة، أو غير ديمقراطيَّة، أو إقصائيَّة... فالنَّجاح المدهش لحزب العدالة والتَّنمية هو الذي جعله يكرِّر فوزه بقوَّةٍ وليس إقصائيَّته ولا استبداديَّته التي ظلَّت الأنظمة العربيَّة والإسلاميَّة والعالميَّة تكرِّرها من خلال أبواقها علىٰ مدار عشرات السِّنين الماضية.

صَمَتَ العالم وصمتت الأنظمة العربيَّة والإسلاميَّة مرغمين علىٰ نجاح هٰذه التَّجربة، وتعاملوا معها بمداراة ومراعاة في الظاهر، فيما الباطن كان يضمر غير ذٰلكَ في أغلب الظَّنِّ. لا ندري حقيقة ماذا كان يدور في الكواليس من مخطِّطات وأفكار. ولٰكنَّ الظاهر كان يدل علىٰ تقبل غير مؤكِّدٍ، نقول تقبُّل غير مؤكَّدٍ لأنَّ الاتحاد الأوروبي فرح بألمٍ: فرح لأنَّهُ اعتقد أنَّ تركيا خرجت من المنظومة الأوروبيَّة وتراخت أو تناست تركيا فكرة الانضمام إلىٰ الاتحاد الأوروبي، وألم من نجاح التَّجربة الإسلاميَّة في السُّلطة، وهو الخوف الواخز للأوروبيين علىٰ مدار العقود

السَّابقة. ودليلنا علىٰ جمع الفرح بالألم بهٰذا الفهم أنَّ أوروبا لم تتقدَّم خطوة نحو تركيا في موضوع الاتحاد الأوروبي. وهٰذا موضوع يحتاج إلىٰ وقفةٍ خاصَّةٍ علىٰ أيِّ حال.

ولٰكنَّ ما لم يكن بالحسبان أبداً هو الرَّبيع العربي الذي جاء بعيداً عن التَّوقعات الغربيَّة علىٰ الأقل. وقلب الموازين. وقفت أوروبا وأمريكا مع طلائع الربيع في تونس ومصر ورُبَّما ليبيا وقفة التَّجريب لا وقفة المناصرة الحقيقيَّة. وترقَّبت النَّتائج لتبني علىٰ أساسها استراتيجياتها. يمكن القول إنَّها وقفت بصدق مع الربيع العربي في أوائله ولا بأس في ذٰلكَ. ولٰكنَّ ما حدث بعد ذٰلكَ يؤكِّد ندم الغرب علىٰ هٰذه الوقفة الداعمة إن كانت صادقةً أو تجريبيَّةً خادعةً. فقد كانت المؤشِّرات كلها في تلك البدايات توحي بتقدُّم الأحزاب والحركات والاتجاهات الإسلاميَّة. هنا ظهرت كوامن الغرب والأنظمة العربيَّة من انعكاسات نجاح حزب العدالة والتَّنمية في تركيا، وكان القرار الضِّمني القوي المتوافق عليه بَيْنَ الأنظمة العربيَّة علىٰ الأقل والأنظمة الغربية:

أولاً: لا يجوز أن يكون نجاح حزب العدالة والتَّنمية قدوةً للجماهير في العالم الإسلامي.

ثانياً: لا يجوز أن تعمم تجربة نجاح حكم الإسلاميين في البلدان الإسلاميَّة مهما كلف ذٰلكَ من ثمن...

ثالثاً: لا يجوز السَّماح لأيِّ حزبٍ أو حركةٍ أو اتجاهٍ إسلاميٍّ أن ينجح في السُّلطة إذا استطاع الوصول إليها.

رابعاً: يجب أن تظلَّ الأحزاب الإسلاميَّة ملاحقةً محاربةً مدانةً بالشِّيطنة والاستفراد بالسُّلطة والإرهاب وما إلى ذٰلكَ من تهم وتشويه وتشنيع.

«على الرَّغْمِ من أنَّ الخلافة ليست نظام الحكم الإسلامي الوحيد، ولا الواجب، ولا النافل... فهي هي نظام حكم من عشرات أنواع أنظمة الحكم التي لا تتعارض مع الإسلام ولا يعارضها الإسلام... إلا أنَّهَا تظلُّ الصُّورة الرَّمزيَّة لمجد الأمَّة ووحدتها في الذِّهنيَّة الإسلامية قاطبةً، وتظل مطمحاً يداعب أخيلة المسلمين دائماً لا بوصفه صورة من الماضي وإنَّمَا بوصفها مخرجاً للأمَّة من ضعفها وهوانها ومحنها وترديها وتدهورها وتشرذمها وتتالي هزائمها المخزية على مدار أكثر من قرن... وأرجو أن لا نعجب من سلسلة المخازي هٰذه فهي الحقيقة التي يعيشها العرب والمسلمون ويعانون منها شديد المضض؛ المادي والمعنوي»[٩٩].

إنَّ نجاح حزب العدالة والتَّنمية في تركيا هٰذا النَّجاح المبهر أحيا في قلوب الكثيرين فكرة الخلافة الإسلاميَّة، وأعاد إلىٰ الأذهان تركيا المسلمة إلىٰ الصَّف الإسلاميِّ بعد تغريبها في المسار الغربي عشرات السِّنين. ولقد أدرك الغرب هٰذه الحقيقة تماماً، الأمر الذي أعاد تصعيد فوبيا الخلافة الإسلاميَّة في العقليَّة السِّياسيَّة الغربيَّة. «الخلافةُ الإسلاميَّة هي البعبع الذي يخاف الغرب من انتشار فكرته بَيْنَ المسلمين أكثر مما يخاف من المسلمين... ولذلك استنفرت أمريكا كلَّ جهودها والعالم معها وأحداث الحادي عشر من أيلول للقضاء علىٰ الخلافة في أفغانستان علىٰ الرَّغْمِ من أنَّهَا لا تهشُّ ولا تنشُّ... ولٰكنَّ فكرة أنَّ هناك خلافة إسلاميَّة قائمة يجلب الضَّجر والقلق والأرق والصُّداع والسَّرطان للغرب»[١٠٠].

لم يستح الغرب أبداً من التَّصريح بأنَّهُ لا يمكن أن يسمح بإقامة دولة الخلافة الإسلاميَّة، بل إنَّهُ يريد أن يقضي علىٰ هٰذا الحلم في رؤوس المسلمين.

---

[٩٩] . الدكتور عزت السيد أحمد: **تفجيرات أيلول وصراع الحضارات؛ الولايات المتحدة صنعت الحدث لتصنع المستقبل**. دار إنانا. دمشق. ٢٠٠٣م. ص ٢٠٤.

[١٠٠] . الدكتور عزت السيد أحمد: **تفجيرات أيلول وصراع الحضارات**. ص ٢٠٥.

عضو الكونجرس الأمريكي السيناتور **جوزيف ليبرمان** قال ذٰلكَ بوضح وصراحة لا لبس فيها في تصريح له لوول ستريت جورنال ٢٠٠٩/٢/٦م[١٠١]: «نستطيع أن ندعم المعتدلين لجعل أفغانستان مقبرة للقاعدة تُدفن فيها أحلام الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة»[١٠٢].

لم تكد يهنأ الغرب بالقضاء علىٰ الخلافة الإسلاميَّة في أفغانستان حَتَّىٰ عاد ظلُّها يخيم علىٰ المسلمين في المجتمع الإسلامي من جديد بنجاحات حزب العدالة والتَّنمية في تركيا. لقد تعامل الغرب بهدوءٍ ودهاء مع ذٰلكَ، ولٰكنَّهُ من المتعذر تصديق أنَّهُ لم يرتسم في مخيلاتهم عشرات المخطَّطات لوضع حدٍّ لهذه الظاهرة في تركيا ذاتها وفي أيِّ دولةٍ أُخْرَىٰ مسملةٍ. وهٰذا ما سنكشف عنه فيما سيأتي.

أن يخاف الغرب من الخلافة الإسلاميَّة فهٰذا هو الأمر المنطقيُّ ويصعب بل يتعذَّر تخيُّل خلافه. ولٰكن أن تكون أنظمة الدُّول المسلمة هي التي تتوجس الهواجس من الخلافة ومن نجاح الأحزاب والحركات الإسلاميَّة وتصل مخاوفهم من ذٰلكَ إلىٰ حدِّ الهستريا فهٰذا ما لا يمكن توقعه، ولٰكنَّهُ الحقيقة. بل لقد وصلت الوقاحة ببعضهم إلىٰ حدِّ التَّصريح بأنَّ مخاوفهم من صعود دولة الخلافة أو نجاح الإسلاميين هو أنَّ الإسلاميين يهدِّدون أمن إسرائيل؛ الطفل المدلل للغرب عامَّةً والولايات المتَّحدة خاصَّة. وأشدُّ من برز علىٰ لسانهم هٰذا التَّصريح الوقح هو

---

101. Gabriel Winant: Lieberman: **5 Surges for Afghanistan; Senator outlines plan to empower moderate Muslims**, win war. In Wall Street Journal. Posted Feb 6, 2009.

102. "we can empower moderates and make Afghanistan anal-Qaeda "graveyard" where "dreams of an Islamic empire are finally buried. Link: http://www.newser.com/story/50114/lieberman-5-surges-for-afghanistan.html.

مسؤولو النِّظام السُّوري، فمنذ نحو العام وعلىٰ شاشة التِّلفزيون السُّوري الرَّسمي قال أحد مفكِّري النِّظام أو منظريه «إنَّ الإسلاميين إذا هزموا نظام الأسد فإنَّهُم سيشكلون خطراً علىٰ إسرائيل، سيحرِّرن القدس»[١٠٣]. وبعد ستة أشهر من ذَلكَ تقريباً جاء **وليد المعلم** ليحذر العالم من أنَّهُ إذا سقط نظام **بشار** فإنَّ الخلافة الإسلاميَّة ستعود[١٠٤]!!!!

إذن نجاح حزب العدالة والتَّنمية لم يكن محض براعة في إدارة الدَّولة وتحقيق معدلات نموٍّ اقتصاديٍّ غير مسبوقةٍ، وتطور في العلاقات السياسية وفتح آفاق جديدة أمام الأتراك في التَّنمية والازدهار والتَّطور العلميِّ... فهٰذا علىٰ ما بدا ويبدو علىٰ الرَّغْمِ من كلِّ ما فيه من مظاهر حضاريَّة أمر غيرُ مسموحٍ به لأنَّهُ يفتح آفاقاً غيرَ مرغوبٍ فيها ولا مقبولةً عند الغرب ولا عند أنظمة الحكم في العالم الإسلاميِّ عامَّةً والعربيِّ خاصةً. ولذلك توافق الغرب مع أنظمة الحكم في العالم العربيِّ والإسلاميِّ علىٰ النِّقاط الأربع التي سلف الحديث فيها وهي: عدم جواز تمرير نجاح حزب العدالة والتَّنمية وعدم السَّماح بأن يكون قدوةً، وعدم جواز تعميم نجاح هٰذه التَّجربة أو تكرارها ورُبَّما عدم السَّماح بوصول أيِّ حزبٍ أو حركةٍ إسلاميَّةٍ إلىٰ السُّلطة، ورُبَّما أيضاً العمل علىٰ إبقاء الأحزاب والحركات

---

[١٠٣] . مشهد هٰذا اللقاء منشور على اليوتيوب بعنوان: التليفزيون السورى يحذر من أن الإسلاميون سيحررون القدس . بتاريخ ٢٠١٣/١/١٣م. وهٰذا هو رابط اللقاء: http://www.youtube.com/watch?v=zUnZh43ptPE.

[١٠٤] . المقطع منشور على اليوتوب بعنوان: وليد المعلم يحذر من خطورة قيام دولة الخلافة الإسلامية في سوريا . بتاريخ ٢٠١٣/٦/٢٤م. وكذَلكَ بعنوان: وليد المعلم يحذر السعودية والأردن إذا سقط بشار ستعود الخلافة الإسلامية الى سوريا . بتاريخ ٢٠١٣/٩/٢م. وهٰذا رابط المشهد: http://www.youtube.com/watch?v=_cc29II2VEA&feature=youtu.be.

الإسلاميَّة قيد الملاحقة والمطاردة والشَّيطنة... وما إلى ذَلكَ مما يحدث في مصر وسوريا والعراق بوضوح وفي بقيَّة الدول بشبه وضوحٍ أو بسريَّة. ولذَلك تضافرت كلُّ هٰذه القوىٰ بوضوح علىٰ إسقاط حكم الأخوان في مصر.

من مواجهة الخلافة إلى محاورتها

في هٰذه الآونة وقعت علىٰ رسالة من جون شيا إلىٰ الرئيس الأمريكي يحضه فيها علىٰ ضرورة التعامل مع دولة الخلافة الخامسة علىٰ حدٍّ قوله. أو ما يمكن تسميها حتميَّة المصالحة مع دولة الخلافة الخامسة، نشرها في الحادي عشَر من شهر كانون الثاني/ يناير عام ٢٠١٠م[١٠٥]، ذكرها الأستاذ **نايف ذوابة** تعليقاً علىٰ مقال الخلافة أحلام طفوليَّة أم حقيقة قادمةٌ الذي كتبه محمد حافظ[١٠٦].

كتب **جون شيا** الصحفي الأميركي البارز، ورئيس تحرير مجلة American Reporterبالمجلد السَّادس عشر برقم ٣٨٥١ مقالاً بعنوان: «الحرب ضدَّ الخلافة»، تضمَّن المقال رسالة موجهة إلىٰ الرَّئيس أوباما تتعلَّق بما أسماه (دولة الخلافة الخامسة).

بدأ **شيا** مقاله بالإشارة إلىٰ اجتماع الرئيس **أوباما** بِمُستشاريه من أعلى القيادات العسكريَّة والمدنيَّة لمناقشة مسألة إرْسال قوَّات إضافيَّة إلىٰ أفغانستان، يقول **شيا**:

---

105. JOE SHEA, THE WAR AGAINST THE CALIPHATE ,American Reporter Vol. 16, No. 3,857 – – January 19, 2010

[١٠٦] . نص الرسالة الذي سأنشره هو النص الذي ذكره بترجمته فيما أظن الأستاذ نايف ذوابه في موقع الجمعية الدولية للمترجمين العرب.

بعد عدَّة شهور من الترويّ أصْدَرَ الرَّئيس أوامرَه بانتِشار ثلاثين ألف جنديٍّ إضافيٍّ في أفغانستان، والآن ماذا عساي أن أقول والجنود في طريقِهم فعلاً إلىٰ هناك؟!

أفغانستان، هٰذه البلاد التي أصبحت بعد ما يقرُب من عقد من الزَّمان رهانًا لكسْر العظام في اللُّعبة الَّتي يلعَبُها الجهاديون.

المشكلة هي أنَّ الرئيس ومستشاريه لا يُريدون الاعتِراف بأنَّ هٰذه اللعبة تأخُذ الآن منحًى جديداً، إنَّهم لا يريدون الاعتِراف بأنَّ الجهاديين لا يسعَون إلىٰ غزو البلاد الإسلاميَّة؛ وذٰلكَ لأنَّ لهم فيها قاعدة عريضة تنظُر إليهم وإلىٰ قيادتِهم علىٰ أنَّهم يمثِّلون القيادة الروحيَّة في الإسلام، إنَّهم يسعَون بدلاً من ذٰلكَ إلىٰ بناء (دولة الخلافة الخامسة) الَّتي ينضوي الإسلام جَميعه تحت حكمها، (الخليفة) في هٰذه الدَّولة هو الإمام، وهو القائد الروحي والحكومي، وكلُّ المسلمين يقرُّون له بذٰلكَ.

ماذا يعني هٰذا بالنسبة للرَّئيس؟

إنَّه يعني أنَّ الجنود الجدد، والجنود القدامى يُواجهون عدوًّا جديدًا، وهو أكثر الأعداء مخافة، وأضيف: إنَّه عدو لا يُقهر، ذٰلكَ ببساطة لأنَّه محض فكرة.

إنَّ هٰذه التَّنظيمات الجهاديَّة لا تهدف إلىٰ تحقيق فتوحات تكسب بها أرضًا، إنَّما تهدف إلىٰ تحويل العلمانيِّين والمسلمين المعْتدلين إلىٰ إسلام لم يُمارسوه من قبل، إنَّه الإسلام الَّذي يلتزم فيه المسلِمون بالتفسيرات الصَّارمة للقرآن، وهو الإسلام الذي تبنَّته المئات من التَّنظيمات الإسلاميَّة المشابهة المنتشِرة عبر العالم الإسلامي، خاصَّة بعد الهجوم النَّاجح علىٰ الولايات المتَّحدة في الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م.

إنَّ الخلافة بوصفها فِكْرة تتطلَّب إنجازَ انتِصارات عسكريَّة من شأنها أن تُحقِّق إجماعًا بَيْنَ المسلمين العاديِّين، يجعلُهم يتبنَّون فكر هٰذه التَّنظيمات، سواء من ناحية الشَّكل الذي تريده للإسلام، أو قبول القيادة الجديدة التي تقود هٰذه التَّنظيمات والتي تحقِّق هٰذه الانتِصارات، إنَّ تحوَّل عددٍ كافٍ من المسلِمين العاديِّين إلىٰ هٰذا الفكر وهٰذه القيادة يعنى أنَّ (اتِّجاه الريح) ضدَّ الأميركيِّين بدأ في التغيُّر.

إنَّ تصوُّري للسيناريو الخاصِّ بهٰذا التَّغيُّر سيَكون علىٰ النَّحو التَّالي:

ستفقد الحكومات القوميَّة في بلاد الشَّرق الأوسط شرعيَّتها الضَّعيفة، ولن تعُود الأوامر تصْدر من عواصم هٰذه الحكومات، إنَّما ستصدر من هناك، من هٰذه المنْحدرات الجبليَّة التي يختبئ فيها قادةُ التَّنظيمات الجهاديَّة، وقد يكون أهم تغيُّر هنا هو تحوُّل الشّيعة من قم إلىٰ طهران إلىٰ أتباعٍ لقيادة التَّنظيمات السنيَّة، ولا يعني هٰذا أنَّ آيات الله وقياداتهم في إيران ـ بمن فيهم الرَّئيس الإيراني ـ سوف يفقدون نفوذَهم بَيْنَ الشيعة، أو أنَّ سلطاتهم ستتأثر، ولكنَّهُم سيجدون أنفُسَهم في وضعٍ يحتِّم عليهم الخضوع لهذا الفهْم السني للشَّريعة الذي سيفرضه قادة التَّنظيمات الجهاديَّة.

أمَّا هؤلاء الزُّعماء الذين يصرُّون علىٰ المقاومة، فإنَّهُ ما إن يعلن قيام دولة الخلافة الخامسة، ستتجاهلُهم قيادة هٰذه الدَّولة في بداية الأمر، وستعْمل علىٰ تَحويلهم إلىٰ منهجها، وإن لم يفعلوا فإنَّ مصيرَهم سيكون إمَّا السِّجن أو القتل.

لم تكن أوَّل إشارات لدولة الخلافة المفترضة سوى تَمريرها لكلمة (الخلافة)، وهٰذا الأمر لم يُلاحِظْه الكثيرون حينما ظهر علىٰ العديد من المواقع الإسلاميَّة الأصوليَّة.

وفي الوقْت الذي كان فيه الغرْب يُتابع إشارات هٰذه المواقِع بوصفها مظهراً للصِّراع ضدَّه، كانت هناك انتِصارات أُخْرىٰ تتحقَّق في ميدان المعركة تمهِّد لميلاد دولة الخلافة.

من غير المحتمل أن تكون الاستراتيجيَّة التي قد تتبعها التَّنظيمات الجهادية قد اتبعت من قبل، فما أن يتَّخذ مئة ألف جندي أميركي وحلفاؤهم مواقعَهم في أفغانستان، فإنَّ هٰذه التَّنظيمات وقياداتها قد تلْجأ إلى استِخْدام سلطتها الرُّوحيَّة ومفرداتها العقديَّة؛ لتحوِّل ملايين المسلمين الَّذين انضمُّوا فعلاً تحت لوائِها إلىٰ جنود يُحاربون أعداء الإسلام.

حينما قدَّمنا لأفغانستان أوَّل مرَّة رحَّب الأفغان بنا وبحكومتِها التي صنعناها لهم، هٰذا كان بالأمس، أمَّا في الغد فإنَّ الأمر مختلف بجدٍّ، ستطْلب المجالس المنتخبة لدوْلة الخلافة حديثًا ـ الَّتي تسيطر علىٰ معظم أنْحاء البلاد ـ من كلِّ مسلمٍ: أن يضطلِع بدوره في الجهاد ضدَّنا، عندئذ تتغيَّر أوْضاعنا من قوَّات كانت تحْظى بشرف نسبي، إلىٰ قوَّات أسيرة شرَك كبير للغاية، ويضيق عليها هٰذا الشرك يومًا بعد يوم.

الحقيقة الجليَّة هي أنَّه لا يستطيع أيُّ جيشٍ في العالم، ولا أيَّة قوَّة عسكريَّة ـ مهما بلغت درجة تسليحها ـ أن تهزم (فكرة). يجب أن نقرَّ بأنَّنا لا نستطيع أن نحرق قادة هٰذه الفِكْرة في كلِّ بلاد الشَّرق الأوسط، ولا أن نحرق كتُبَها، ولا أن ننشر أسرارها؛ ذٰلكَ لأنَّ هناك إجماعًا بَيْنَ المسلمين علىٰ هٰذه الفكرة.

إنَّ الشَّرق الأوسط يواجه اليوم القوَّة الاقتصاديَّة الموحَّدة للدُّول الأوربيَّة، هٰذا صحيحٌ، لكن علينا أن نعرِف أنَّهُ في الغد سيواجه الغرب القوَّة الموحَّدة لدولة الخلافة الخامسة.

ليسمح لي سيادة الرئيس أوباما أن أُبدي إليه بعض الملاحظات الهامَّة.

سيدي الرَّئيس:

إنَّ المعركة بَيْنَ الإسلام والغرْب معركةٌ حتميَّةٌ لا يمكن تجنُّبها، وهي ذاتُ تاريخٍ قديمٍ، ولا بدَّ أن نضعَ حدًّا لهذا الصِّراع، وليس أمامنا إلاَّ أن ندخل في مفاوضات سلام مع الإسلام.

إنِّي أتوقَّع أن يخبرَك البعض بأنَّه من المستبعد تماماً أن ندخُل في مفاوضات مع عدوٍّ متخيَّلٍ اسمه (الخلافة الخامسة)، لكنَّه يجِب عليك بوصفك قائداً عسكريًّا وأنت تصوغ سياستك في التعامل مع الإسلام أن تعترِف بسخافة الادِّعاء بأنَّ الإسلام منقسم علىٰ نفسه، وأن تعترف كذلك بأنَّ توحيد بلاد الإسلام تحت إمرة قائدٍ كارزمي أمرٌ محتملٌ.

إنَّهُ من المسلَّم به أنَّه يصعب محاربة شبح لا يمكن رؤيته، أو حتَّى الاعتقاد بوجوده، لكنَّ الأشدَّ صعوبةً هو أن تجِد هٰذا الشَّبح قد أصبح حقيقة واقعةً لَمْ تحسب لها حساباتك، فإذا حدث ذَلكَ ـ وهو ما تسعى إليه التَّنظيمات الجهاديَّة ـ سنكون قد وقعنا في شركٍ كبيرٍ آخَر؛ الملايين من المسلمين سيقِفون ضدَّنا، وعندئذ يصعبُ علىْنا التَّراجُع.

إنَّ معظم الأميركيين يكرهون التَّعايش مع حرب طال أمدُها من أجل ضمان إقامة ديمقراطيَّة حرَّة في أفغانستان، أو من أجل مساندة أنظِمة في باكستان والعراق، ويكره الأميركيون كذَلكَ فكرة وجُودِ أميركيٍّ دائم لمْنع احتمال تحقيق التَّنظيمات الجهاديَّة نصراً حاسماً علىْنا يُفقدنا نمط الحياة الذي نعيشه، إنَّنا شعب يملك إرادة قويَّة، ويجب ألاَّ ننتظر حَتَّىٰ تتحطَّم إرادتنا من قبل عدوٍّ يَملك إرادة أقوى.

إنَّنا نعيش مرحلة تتصارع فيها العاطفة مع الأيديولوجيا؛ لهذا فإنَّ الأمر يتطلَّب منا إحداث توافق مع الإسلام، قبل أن تَسيل شلالات الدِّماء من أجساد الأميركيِّين، ولهٰذا أمر قد يحدث قريبًا، يجب أن تكون لديْنا الحكمة فلا نضع أنفُسَنا في قلب الحرْب مع دولة الخلافة الخامسة، والأفضل لنا أن نقِف علىٰ حدودها، يجب أن نزِنَ أنفُسَنا جيِّدًا، يجب أن نفكِّر بضميرنا الخاص كأميركيِّين، فليس من الحكمة أن نساند أنظِمة غير ديمقراطيَّة وعالية الفساد ضدَّ دولة الخلافة التي تصوغ سياستَها أصلاً وفق عقيدة تُحارب الفساد والقيادة غير الرَّاشدة، بأكثر ممَّا تحاربه المبادئ اليهوديَّة . المسيحيَّة الَّتي تتَّسم بالتَّسامح والتَّعاطف مع الخطيئة والمخطئين علىٰ السَّواء.

سيادة الرئيس:

علينا ألاَّ نخاف من قيام حكومة أمينة أيًّا كانت صفتها، إنَّ الَّذي علينا أن نَخافه هو قيادات تخون مبادئها الأساسيَّة.

إنَّنا مسؤولون يا سيادة الرئيس عن العديد من الصَّفقات التي تعمل علىٰ تمكين الفساد في دول الشرق الأوسط، وعن العديد من الخطوات غير العقلانيَّة التي اتَّخذناها لضمان بقاء الحكومات الفاسدة، إنَّهُ بإمكانِنا أن ننسحب من صراعٍ ظاهر الملامح بدلاً من أن ندخُل في حربٍ ضدَّ جيش غير منظور، وبمعنى أصح: ضدَّ (فكرة)، إنَّنا إذا لم نعترِف بهٰذه الحقيقة، فعليْنا أن نتوقَّع هزيمةً أو انسحاباً حتميًّا، عليْنا أن نعرف: مَن هٰذا الذي نحاربه؟ وما الذي نحارب من أجله؟ إنَّه عدوٌّ متسلِّحٌ بدينه يُهاجِمُنا يومًا بعد يوم، هل نحن نحارب من أجل السَّيطرة علىٰ أراض ومقاطعات، أم نحارب فكرة حانَ وقتُها الآن تملؤها رغبة في الانتِقام منَّا؛ لقتلنا مئات الآلاف من الأرواح البريئة؟

الحقيقة هي أنَّنا نحارب الآنَ في أفغانستان أكبر بلاد العالم في تِجارة الهيروين، لصالح حكومة مِن أشدِّ حكومات العالم فساداً، لقد انسحبْنا من العراق في وقتٍ بدأتْ فيه المصالحة الوطنيَّة تجني ثمارها، وعلىٰ رغْم ذَلكَ تتصاعدُ الهجمات ضدَّ الجنود والمدنيِّين، ومع الأسف فإنَّ الحكومات الَّتي شكَّلْناها هناك هي ذاتها تُعتَبَر شكلاً جديداً من الحكومات التي تسْعى إلىٰ تأْخير وتَحطيم أُسُس الديمقراطيَّة الحرَّة.

إنَّنا لا نستطيع أن نملي مستقبل السِّياسة علىٰ الشَّرق الأوسط، أو نرسم سياستَنا لكي نضْمن فقط بقاء أنظمة بعينها، أو لضمان استِمرار إمدادنا بمصدرٍ واحدٍ، إنَّ مستقبلنا يكمن في التِّجارة مع عالم ينعم بالسَّلام، تتوافر فيه الوظائف لشعْبِنا، ويحدث فيه التقدُّم في التكنولوجيا والاختراعات، هٰذا هو الَّذي يصنع الفارق، دعنا نُحارب من أجل ذَلكَ، وليس من أجل حكومات شيْطانيَّة.

سيدي الرئيس:

أشكرك لاستماعك إليَّ، وأنا فخور بأنِّي أعطيتُك صوتي في انتخابات الرِّئاسة الأخيرة.

تعقيباً على جون شيا

النَّص واضحٌ ولا يحتاج أيَّ تعليق علىٰ أيِّ حالٍ. لا جديد فيه من جهة الشكل. فيه بيان لمخاوف الغرب من الخلاف، ومخاوف الغرب من الإسلام، وليس في ذَلكَ من جديد، وتأكيد لحتمية الصراع بَيْنَ الغرب والإسلام، ولا جديد في ذَلكَ أيضاً وفق المنظور الغربي علىٰ أقل تقدير، بل الاستراتيجيا الغربيَّة حيال المنطقة العربيَّة خاصَّةً والإسلامية عامَّةً.

حَتَّىٰ الدَّعوة إلىٰ المصالحة الغربيَّة الإسلاميَّة ليست بالجديدة، وكذَلكَ المحاولة الجادة لفهم الإسلام بعيداً عن الصورة النمطية المرسخة له في العقلية الغربيَّة، وجدنا في الغرب من يفكر بهٰذه الطَّريقة المنطقيَّة والواقعيَّة، لا تأثير لهم رُبَّما، ورُبَّما بدأ مثل هٰذا الصوت يجد صدى لدى السَّاسة الغربيين.

الجديد هنا مسألة واحدة، رُبَّما مرَّتا مروراً عابراً ورُبَّما أثارتا الانتباه. تحدثت فيها كثيراً قبل ذَلكَ بكثير. وهي أنَّ المخاوف الحقيقةية هي من قادة العرب، وإذا كان الغرب قد بدأ يتجه إلىٰ المصالحة مع الإسلام، مع صعوبة تصور ذَلكَ، فإنَّ قادة العالم العربي والإسلامي هم الذين يخوفون من قيام الخلافة الإسلامية، أي بصيغة أُخْرَىٰ من نجاح الإسلام في السلطة.

لنعد إلىٰ نصه لنذكر به. قال: إنَّ تصوُّري للسيناريو الخاصِّ بهٰذا التَّغيُّر سيَكون علىٰ النَّحو التَّالي: «ستفقد الحكومات القوميَّة في بلاد الشَّرق الأوسط شرعيَّتها الضَّعيفة، ولن تعُود الأوامر تصْدر من عواصم هٰذه الحكومات، إنَّما ستصدر من هناك، من هٰذه المنْحدرات الجبليَّة التي يختبئ فيها قادةُ التَّنظيمات الجهاديَّة، وقد يكون أهم تغيُّر هنا هو تحوُّل الشّيعة من قم إلىٰ طهران إلىٰ أتباعٍ لقيادة التَّنظيمات السنيَّة، ولا يعني هٰذا أنَّ آيات الله وقياداتهم في إيران . بمن فيهم الرَّئيس الإيراني . سوف يفقدون نفوذَهم بَيْنَ الشيعة، أو أنَّ سلطاتهم ستتأثر، ولكنَّهُم سيجدون أنفُسَهم في وضعٍ يحتِّم عليهم الخضوع لهذا الفهْم السني للشَّريعة الذي سيفرضه قادة التَّنظيمات الجهاديَّة. أمَّا هؤلاء الزُّعماء الذين يصرُّون علىٰ المقاومة، فإنَّهُ ما إن يعلن قيام دولة الخلافة الخامسة، ستتجاهلُهم قيادة هٰذه الدَّولة في بداية الأمر، وستعْمل علىٰ تَحويلهم إلىٰ منهجها، وإن لم يفعلوا فإنَّ مصيرَهم سيكون إمَّا السِّجن أو القتل».

هٰذه هي نقطة البداية في فهم خطر نجاح الإسلام في السُّلطة. وهٰذه هي نقطة البداية في فهم ما اعترى ويعتري نجاح الإسلاميين في الوصول إلىٰ السُّلطة في مصر وتونس وليبيا ومحاربة الثَّورة السُّورية خوفاً من وصول الإسلاميين إلىٰ السُّلطة. وفيما سيأتي من فصول تبيان لما حدث وكيف.

تصوير الخلافة كوباء

مختلف فقرات الفصل السَّابقة كتبت علىٰ مدار سنوات يعود أولها إلىٰ نحو خمس عشرة سنة وبعضها إلىٰ السَّنوات السَّابقة المنصرمة.

استجد جديد علىٰ السَّاحة هو تصوير الخلافة الإسلاميَّة علىٰ أنَّها وباء يجب الهروب منه. منذ إعلان تنظيم الدَّولة الإسلاميَّة الخلافة في أواسط عام ٢٠١٤م استلهم الغرب من فكرة الحرب علىٰ تنظيم الدولة فكرة خطيرة هي ليس محاربة تنظيم الدولة ذاته فقط بل محاربة فكرة الخلافة الإسلامية والتحذير منها حَتَّىٰ صار (المسلمون) أنفسهم يتندرون بالخلافة والتحذير منها والهزء ممن يفكر فيها.

ولأنَّ تركيا اليوم في واجهة العالم الإسلامي من ناحية نجاحاتها الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة واستقطاب المسلمين وحبهم لتركيا... ومن ثمَّ خوف الغرب من اضطلاع تركيا بدور استقطابي للمسلمين وأن تلعب دوراً إسلاميًّا فاعلاً وفعليًّا فقد بدأت الآلات الإعلاميَّة في الدُّول الغربيَّة والإسلاميَّة بالضَّخِّ التَّشويهي للخلافة والتَّحذير من رغبة تركيا في استعادة أمجاد الخلافة العثمانيَّة.

طريقة الضَّخِّ الإعلاميِّ والتَّحذير توحي بأنَّ الخلافة مرضٌ جذامٌ أو وباءٌ يجب الهروب منه وعدم السَّماح به والقضاء عليه. هي ليست حرباً علىٰ تركيا بما هي تركيا وإنما هي حرب علىٰ الإسلام وتشويه كل قيمه وثوابته وتهشيمها في

نفوس المسلمين أنفسهم إذ هي مشوهة ومهشمة في نفوس الغربيين بطبيعة الحال. وإذا من المتوقَّع والمترقب أن نشهد ذَلكَ علىٰ ألسنة الغربيين فإنَّهُ لمن المؤسف كل الأسف أن نجد تكرار هٰذه التُّرَّهات والسَّفاهات علىٰ ألسنة أناسٍ يزعمون أنَّهُم من المسلمين، ويحملون أسماء إسلاميَّة، ويعيشون في بلاد المسلمين.

خاتمة

في آفاق الحوار

هناك أناس اعتادوا الاجتزاء
في الفهم لقصور في الفهم أو سوء
الطوية فلا يرون إلا ما يريدون أن
رؤيته مهما كان متناقضاً مع الواقع
بل مهما كان متناقضاً مع المنطق
بل مهما وقعوا فيه من تناقض.

مع كلِّ ما سبق سيوجد من يطرح السؤال التالي:

ألا يوجد من أمل أو بارقة أمل في قيام حوار بَيْنَ الحضارات؟

الأمل سيبقى ولٰكنَّ الواقع لن يسمح. لن يكون هناك أي حوارٍ بَيْنَ الحضارات بالمعنى المنشود. تحدثنا عن شواهد وحقائق منئ مئات السنين وإلىٰ يومنا هٰذا تقريباً، وكلها تقطع الشك باليقين بتعذُّر قيام هٰذا الحوار بَيْنَ الحضارات. ونختم هنا بشاهدين لا يخلوان من الكوميديا السوداء.

في شاهد ومثال جدِّ شهير نتذكر رسالة الجندي البلجيكي إلىٰ أهله، وقد كتبها من مستعمرة إفريقية، يحدثهم فيها عن حياته مثل أيِّ جندي، ومما جاء في رسالته حديثه عن قتله الأفارقة أبناء المستعمرة، ولٰكنَّهُ في مرة وهو يقتل شخصاً تعرض لمشكلة استدعت استغرابه الذي نقله إلىٰ أهله، فقال: «تصوروا أن هٰذا الإفريقي القذر عضَّ يدي وأنا أهمُّ بإطلاق النَّار علىٰ رأسه».

شيء مدهش في الحقيقة.

أمران أوضحهما هنا، أن هٰذا الجندي بلجيكي والشَّاهد في المثال التَّالي أيضاً بلجيكي، وهٰذه مصادفةٌ لا تنفي التُّهمة والسُّلوك عن غيرهم

من الغربيين. والثَّاني هو أنَّ هٰذا الشَّاهد والتَّالي ليسا استثناء وإنَّمَا هما السُّلوك العام وليس المطلق. من يتتبع يجد عشرات ورُبَّما مئات الأمثلة المشابهة في المبدأ.

إذا كان الشَّاهد السَّابق يعود إلىٰ منتصف القرن العشرين فإنَّ الشَّاهد الثَّاني يعود إلىٰ عشر سنوات فقط. فعندما سئل المفكر الغربيِّ **كرستوف هوبرت** في سنة ٢٠٠٦م عن اليمن وقد عمل فيها سفيراً لبلجيكا قال:

«الشَّعب اليمنيُّ شعبٌ متوحِّش أشبه للحيوانات منه للبشر لا يفقه من أمر الحياة شيئاً. وإن فقهَ لَفَقِهَ بطريقةٍ خاطئةٍ، هم دون البشر رتبة، وكأنَّهُم خلقوا من جنس غير بني آدم متشدِّدون في التَّدين لدرجة أن يزهد الأنسان بروحه و بدنه من أجل الدِّين أو محمد يذكرونه بالخير أكثر من مئة مرَّة في اليوم. معفنون لدرجة أنَّكَ تشعر بالتقيوء عند رؤية أحد منهم. تخافهم لأنَّهُم يستخدمون السِّلاح بدرجةٍ خطيرةٍ فهم لا يتركون طلقة تذهب منم هباء الا وقتلوا بها روحاً. أغبياء لدرجة أنَّهُم سعيدون بالفقر وعندما تسألهم عن حالهم يقولون الحمد لله وهم ينامون في الطُّرقات. فماذا عمل لهم الله ليشكروه.

يتعادون فيما بَيْنَهم فإذا دخل الغريب بَيْنَهم وقفوا ضدَّه لدرجة تشعر أنَّهُم ليسوا متعادين. جهلة فهم يؤمنون بأن حفظ كتابهم المقدس وما يسمَّى بالقرآن عند المسلمين وتعلمه هو العلم النافع وهو أساس كلِّ العلوم لا تجد فيهم ملحداً ذا عقليَّةٍ متنوِّرةٍ أبداً لذٰلكَ فتفيكرهم محدودٌ محصورٌ بالدِّين ومحمد والقرآن.

نشعر بالرعب من صرخاتهم فهم أكثر شعوب الأرض وحشية ولو خرجوا من بلدهم لأكلوا شعوب الأرض قاطبة. لذا فإنَّنا ننظر إليهم كوحوش في حديقة حيوان يسمى اليمن يفضل أن يبقوا فيه».

أسئلة لا سؤال تتواثب بعد هٰذين الشَّاهدين. قبل أيِّ شيءٍ نتساءل: هل شهد تاريخ الغزو أو الفتح أو الاحتلال العربي أو الإسلامي لأيِّ دولةٍ في العالم مثل هٰذا السُّلوك؟ وكم شهد التاريخ مثل هٰذا السُّلوك من الغرب تجاه الشَّرق؟

والسُّؤال الذي يلي ذٰلكَ: أيُّ حوارٍ يمكن يكون مع هٰؤلاء وكيف يمكن أن يحاوروك؟

هٰذه ليست مفردات أشخاصٍ، هٰذه عقليَّة الغرب عامَّة. هٰذه العقليَّة الاجتماعيَّة الغربيَّة عامَّة وليست عقليَّة هٰذا شخص أو اثنين أو مئة أو ألف وإنما هي عقليَّة اجتماعيَّة يمكن أن يستثنى منها قليلٌ نادرٌ إن تجاوز عدد الأصابع فلن يتجاوزها بكثيرٍ.

أعرف الكثير من الغربيين الذين يرفضون هٰذه الأفكار الخاطئة، وينشدون الحوار ويسعون إليه بإخلاص، ولذٰلك أرجو أن يتكرر الغباء ذاته بزعم أنَّهُ يوجد في الغرب من لا يؤمن بهٰذه الأفكار ويريد الحوار، أعرف أنَّهُ يوجد.

هناك أناس اعتادوا الاجتزاء في الفهم لقصور في الفهم أو سوء الطوية فلا يرون إلا ما يريدون أن رؤيته مهما كان متناقضاً مع الواقع بل مهما كان متناقضاً مع المنطق بل مهما وقعوا فيه من تناقض.

حوار الحضارات بالمعنى المنشود مسدود الطَّريق والطَّريق لن يفتح. المسألة ليست مسألة رغبة ولا إرادة ولا واجب المسألة مسألة واقع، الواقع يقول بتعذر هٰذا الحوار تعذراً مطلقاً.

ومن جديدٍ أكرِّر هٰذا لا يعني أنَّني أنا ضدَّ حوار الحضارات. أنا قمت بتفكيك الموضوع وحللته وبيَّنتُ حقيقة ما هو كائنٌ وما يمكن أن يكون لا ما يجب أن يكون ولا ما أحب أن يكون. فإن وفِّقتُ فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

مراجع الكتاب

- أحمد قطرية (الدكتور): **ندوة العرب والمسلمون في المخيّلة الغربية؛ بحث في الأصول التاريخية.. واستعراض لمسببات الظاهرة واقتراحات حول كيفية تقديم صورة إيجابية للعرب والمسلمين للآخر** . ندوة صحيفة الجزيرة الثقافية . الرياض . السعودية . شباط/ فبراير ٢٠٠٧م.
- أحمد منصور: **المخطط الأمريكي الجديد تجاه الدول العربية والإسلامية؛ لقاء مع وليام بيكر** . برنامج بلا حدود . محطة الجزيرة . يوم الأحد ١٤٢٣/٨/٢٠هـ الموافق ٢٠٠٢/١٠/٢٧م.
- إدوارد سعيد (الدكتور): **الاستشراق** . صدر في طبعته الأولى بالإنجليزية عام ١٩٧٧م، والعربية الأولى عام ١٩٨١م، وفي أقل من ثلاث سنوات ترجم إلى تسع لغات: الفرنسية، الألمانية الإسبانية، الإيطالية، التركية، الفارسية، الماليزية، اليابانية، العربية.
- استقصاء منظمة مناهضة الخوف من الإسلام في أوائل عام ٢٠١٦م. نقلاً عن: برنامج بلا حدود . لقاء مع مايكل بريقو مدير الشبكة الأوروبية لمكافحة العنصرية . قناة الجزيرة . الأربعاء ٧ أيلول/سبتمبر ٢٠١٦م.

- إلفان توفلر: **بناء حضارة جديدة؛ سياسة الموجة الثالثة** . ترجمة حافظ الجمالي . اتحاد الكتاب العرب . دمشق.
- برنامج المرصد: **عودة الإسلاموفوبيا.. وأطلس مستعد للقتال** . الجزيرة نت . برنامج المرصد . الاثنين ١٤٣٦/٣/١٤ هـ - الموافق ٢٠١٥/١/٥م.
- برنامج الواقع العربي: **الجاليات العربية والمسلمة بأوروبا وظاهرة إسلاموفوبيا؛ المسلمون محاصرون بالإسلاموفوبيا من الغرب وبأنظمة لا تقل إسلاموفوبيا عن الغرب . الجزيرة نت .** الثلاثاء ١٤٣٦/٢/٩ هـ - الموافق ٢٠١٤/١٢/٢م.
- برنامج الواقع العربي: **عرب أوروبا وجديد الإسلاموفوبيا** . الجزيرة نت . برنامج الواقع العربي . السبت ١٤٣٦/٣/١٢ هـ - الموافق ٢٠١٥/١/٣م.
- بنيامين باربر: **عندما تأكل العولمة الدَّولة الوطنيَّة من فوق** . ترجمة؛ أحمد مغربي . ضمن جريدة: **السَّفير** . العدد ٨٠٦٤ . الخميس ١٩٩٨/٨/٦م.
- تيموثي سافيج: **أوروبا والإسلام؛ الهلال المتنامي وصدام الثقافات** . ترجمة الموقع . موقع إخوان أون لاين . الاثنين ٢٠٠٤/٠٨/١٩م. البحث منشور في: (The Washington quarterly. No Summer 2004).
- جلال أمين: **قادة الغرب يقولون** . طرابلس . ١٩٧٤م.

- جيمس زغبي: **حملة منسقة ومتعصبة** . جريدة الشرق الأوسط . لندن . العدد ٩٠٢٩ . الاثنين ٢٠ جمادى الآخرة الموافق لـ ١٨ آب/ أغسطس ٢٠٠٣م.
- خالد وداعة: **من أدلة تحريف الإنجيل** . موقع شبكة الألوكة . الخميس ١٤٣٢/٦/٢٨ هـ – الموافق ٢٠١١/٦/١م.
- خالد يوسف: **جريمة الرسوم؛ عدسة البقع السوداء وعين المخابرات** . موقع المسلم نت . ٤آذار/ مارس ٢٠٠٦م.
- خير الدين عبد الرحمن (الدكتور): **من أجل استعادة الوعي العربي** - ضمن جريدة **البعث** . العدد ١٢٥٤٢ . الاثنين ٢٨ شباط ٢٠٠٥م.
- دافيد روثكوبف: **في مديح الإمبرياليَّة الثقافيَّة** . ترجمة؛ أحمد خضر . ضمن مجلة؛ الثَّقافة العالمية . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت . العدد ٨٥ . ١٩٩٧م - ص ٢٩.
- سعد جمعة: **المؤامرة ومعركة المصير**. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر . القاهرة . ١٩٦٩م.
- صامويل هامتنغتون وآخرون: **صدام الحضارات** . مركز الدِّراسات الاستراتيجيَّة والبحوث . بيروت . ط١ . ١٩٩٥م.
- صامويل هانتغتون: **الغَرْب ... إنَّه فريدٌ ولكنَّه ليس كلِّيًّا جامعاً** . ترجمة؛ فاضل جكتر . ضمن مجلَّة؛ **أوروبا والعرب** . العدد ١٦٦ .١٦٧ . أَيَّار . حزيران . ١٩٩٧م.

- عزت السيد أحمد: **الأمم المتحدة بَيْنَ الاستقلال والاستقال والترميم** . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.
- عزت السيد أحمد: **الطريق واحدة والبدائل واهية** . مجلة؛ الوفاق العربي . تونس . العدد الرابع . تشرين الأول/ اكتوبر . ١٩٩٩م.
- عزت السيد أحمد: **العدالة الدولية؛ أمنية الفقراء وأسطورة الأقوياء** . مجلة الوفاق العربي . تونس . العدد ٣٠ .كانون الأول ٢٠٠١م.
- عزت السيد أحمد: **المنظومة الأخلاقية في احترام الرأي والرأي الآخر** . جريدة البعث . دمشق . العدد ١٢٤٨٦ . الخميس٢٦ شوال ١٤٢٥هـ/ ٩كانون الأول ٢٠٠٤م.
- عزت السيد أحمد: **أمم متحدة للقرن الحادي والعشرين** في جريدة العهد . بيروت . العدد ٧٨٨ . الجمعة ٢٤ ذو القعدة ١٤١٩هـ الموافق لـ ١٣ آذار ١٩٩٩م.
- عزت السيد أحمد: **تفجيرات أيلول وصراع الحضارات؛ الولايات المتحدة صنعت الحدث لتصنع المستقبل** . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٣م..
- علي بن محمد عودة (الدكتور): **العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام** . العرب نيوز . ١٨ حزيران/ يوليو ٢٠١٦م.
- علي حرب: **صدمة العولمة في خطاب النَّخبة** . جريدة **السَّفير** . العدد ٨٠١٢ . السَّبت ٦ حزيران ١٩٩٨م.

- عمر فروخ ومصطفى الخالدي: **التبشير والاستعمار** . المكتبة العصرية . بيروت . ١٩٨٤م.
- فائزة مصطفى: **الإسلاموفوبيا في فرنسا؛ حروب افتراضية** . الجزيرة نت . الثلاثاء ١٤٣٤/٩/٢٢ هـ – الموافق ٢٠١٣/٧/٣٠م.
- قدس برس: **آلاف المواقع لمهاجمة الإسلام** . موقع دنيا الوطن . غزة . ٤/ ١٠/ ٢٠٠٥م.
- لبيب فهمي: **المنتدى الأول لانتشار ظاهرة الإسلاموفوبيا في بروكسل** . الجزيرة نت . الاثنين ١٤٣٦/٢/٢٢ هـ – الموافق ٢٠١٤/١٢/١٥م.
- لجنة «إدارة شؤون المجتمع الدُّولي»: **جيران في عالم واحد** . ترجمة؛ مجموعة من المترجمين . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ (سلسلة عالم المعرفة) . الكويت . العدد ٢٠١ . ١٩٩٥م . ص٣٠.
- ماجد شدود (الدكتور): **الاستراتيجية** . ص٣٤٢. وانظر كذلك كتابنا: **انهيار أسطورة السلام** . ص١٠٢. وارجع إلى مزيد من التَّفاصيل في فصل المعطيات التَّاريخية والدولية.
- متابعات: **أسلمة الغرب... العقدة الأوروبية الجديدة** . موقع إيلاف . الخميس ٨ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٥م.
- محمد البهي: **الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي** . مكتبة وهبي . القاهرة . ١٩٦٤م.

- محمد فال ولد المجتبى: **الإسلاموفوبيا القاتلة.. على نفسها جنت أوروبا** . الجزيرة نت . الخميس ١٤٣٢/٨/٢٧ هـ - الموافق ٢٠١١/٧/٢٨ م.
- محمود سلطان: **الخوف من أسلمة أوروبا.. مجدداً!** . موقع الإسلام؛ حركة التوحيد والإصلاح . الأربعاء، ٠٤ آذار/مارس ٢٠٠٩م.
- ميشيل إدَّه: **مستقبلنا العربي وتحدِّيات العولمة** . ضمن مجلة؛ **المعرفة** . وزارة الثَّقافة . دمشق . العدد ٤١٠ . تشرين الثَّاني/نوفمبر ١٩٩٧م . ص ١٤.١٥.
- وكالات: **البابا ينتقد الإسلام ويقتبس إساءة لنبيه** . الجزيرة نت . الخميس ٢٠٠٦/٩/١٤م.
- وكالات: **واعظ مسيحي أمريكي يشبه المسلمين بالنازيين** . الجزيرة نت . الأربعاء ١٤٢٣/٩/٨هـ الموافق ٢٠٠٢/١١/١٣م.

- أعاجيب السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- أسس التوثيق؛ نحور نظرية عربية في التوثيق . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م.
- آفاق التغير الاجتماعي والقيمي؛ الثورة التقانية والتغير القيمي . الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- آفاق التمدد الفارسي . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الأمم المتحدة بين الاستقلال والاستقالة والترميم . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.
- أَميرة النَّار والبحار (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٧م.
- أَنا صدى الليل (شعر) . دار الأَصالة للطباعة – دمشق – ١٩٩٥م.
- أنا لست عذري الهوى (شعر) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٩م.
- أنا والزمان خصيمان . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- أنا وعيناك صديقان (شعر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠١م.
- أُنشودة الأَحزان (شعر) – دار الأصالة للطباعة – دمشق . ١٩٩٦م.
- انهيار أسطورة السلام؛ مصير السلام العربي الإسرائيلي . ط١: مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦م. ط٢: دار الفكر الفلسفي . دمشق . الطبعة الثانية ٢٠٠١م.

- انهيار إنسانية الإنسان . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- انهيار الشعر الحر – دار الثقافة – دمشق (ط١) ١٩٩٤م. ـ دار الفكر الفلسفي . دمشق – (ط٢) ٢٠٠٣م.
- انهيار دعاوى الحداثة – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٥م.
- انهيار قيم المعارضة العربية . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- انهيار مزاعم العولمة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعها . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.
- انهيار النظام العربي . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- بديع الكسم . وزارة الثقافة . دمشق – ١٩٩٤م.
- بشرية عمياء عرجاء؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.
- تصنيف المقولات الجمالية . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- تطوير التعليم العالي؛ الواقع والمشكلات والمقترحات . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- تفجيرات أيلول وصراح الحضارات؛ الولايات صنعت الحدث لتصنع المستقبل . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٣م.
- تمهيد في علم الجمال . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.
- الثوار والمعارضة والثورة السورية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الثورة السورية والمؤامرة الكونية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الثورة السورية وأزمة القيادة . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.

- الثورة السورية والحلول التهريجية . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الثورة السورية والنظام السوري . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الجمال وعلم الجمال . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- الحرب على الدولة الإسلامية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- حوار في الذاكرة بيني وبنيتي . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.
- خطر نجاح الإسلام في السلطة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الدخيل على المصلحة (قصص) – ن . م – دمشق – ١٩٩٣م.
- دفاع عن الفلسفة ؛ الفلسفة ثرثرة أَم أُمُّ العلوم ؟ – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- رئيس وأربعة فراعين .. دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- شظايا على الجداران (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- العالم على البركان . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- العالم في مواجهة الإسلام . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- عالم مجنون؛ المضحك المبكي في السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- العدوان الأمريكي على سوريا . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- العدوان الروسي على سوريا . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.

- العرب أعداء أنفسهم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٤م.
- العرب جثة تنهشها الكلاب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.
- عفيف البهنسي والجمالية العربية . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٨م.
- علم الجمال الإعلاني . دار حدوس وإشراقات . عمان/ الأردن . ٢٠١٣م.
- علم الجمال المعلوماتي: نحو نظريَّة جديدة . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- عواد من دون عود (قصص) — دار الأصالة للطباعة – دمشق – ٢٠٠٧م.
- غاوي بطالة (قصص قصيرة) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٦م.
- الغرب الجاني على نفسه . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- فلسفة الفن و الجمال عند ابن خلدون — دار طلاس — دمشق — ١٩٩٣م.
- فلسفة الفن والجمال عند التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٦م.
- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٥م.
- في انتظار حمقاء (قصص قصيرة) . دار الأَصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٥م.
- فيلا وعلبة حلاوة (قصص قصيرة جداً) — دار الأصالة للطباعة – دمشق – ٢٠٠٧م.
- قراءات في فكر بديع الكسم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- قراءات في فكر عادل العوا . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠١م.
- قضايا الفكر العربي المعاصر . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.

- كتابة البحث؛ المفاهيم والقواعد والأصول . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م.
- الكل يطلق المار النار على السوريين وثورتهم . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- كيف ستواجه أمريكا العالم؟ . دار السلام للطباعة . دمشق . ١٩٩٢م.
- لا تعشقيني (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- لبنان والمشروع الأمريكي؛ قراءة في الأزمة اللبنانية وتداعياتها . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م.
- لبنان بَيْنَ حربين؛ الأزمة اللبنانية بَيْنَ الداخل والخارج . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- لوحات من ألم الثورة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- مختارات من دارسي التراث العربي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- المدخل إلى عصر النهضة العربية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- المذاهب الاقتصادية الكبرى . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٨م.
- المذاهب الجمالية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- مكيافيليَّة ونيتشويَّة تربوية: نحو سلوك تربوي عربي جديد . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- ملحمة المجانين (ملحمة شعرية) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.
- من رسائل أبي حيان التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠١م.

- من يسمم الهواء؛ ظاهرة السرقة في عالمي الفكر والأدب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- الموت من دون تعليق (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- النظام الاقتصادي العالمي الجديد . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م .
- النظام الاقتصادي العربي؛ واقع ومشكلات ومقترحات . ط١: دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م. ط٢: دار إنانا ٢٠١٠م.
- نهاية الفلسفة . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٤م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا (ط٢) – دار الفكر الفلسفي – دمشق – ٢٠٠٣م.
- همس الهوى (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٨م.
- وظيفة الفن . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ٢٠١٣م.
- يصغر أمامك الكلم (شعر) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.

المحتويات

الإهداء ٠٠٥

مقدمة ٠٠٧

الفصل الأَوَّل: الشرق والغرب في جدلية الحوار والصراع ٠١٣

تمهيد ٠١٥

الصراع والتكامل ٠١٦

مزاعم الثقافة الخارقة ٠٢٠

وعي الصراع ٠٢٦

آفاق الصراع ٠٣٥

خاتمة ٠٤٠

الفصل الثاني: تاريخية الحقد الغربي على الشرق ٠٤٣

تمهيد ٠٤٥

أوهام بعد الحرب الباردة ٠٤٨

أوهام الظرف الراهن ٠٥٢

الإسلاموفوبيا وتاريخية الحقد الغربي ٠٥٤

الإسلاموفوبيا ومأسسة الحقد الغربي ٠٦٩

خاتمة ٠٧٦

الفصل الثالث: وهم الاحترام المتبادل ٠٧٧
تمهيد ٠٧٩
احترام الآخر واجب ولكن! ٠٨١
هل تصلح الأمم المتحدة ٠٨٨
وهم الطريق الثالث ٠٩١
وهم العدالة الدولية ٠٩٤
غباء مطالبة الاستعمار بالاعتذار ٠٩٨
الفصل الرابع : هستريا الغرب من عودة الخلافة الإسلامية ١٠١
تمهيد ١٠٣
هستريا عودة الخلافة الإسلامية ١٠٤
تصاعد فوبيا الخلافة الإسلامية ١٠٥
من مواجهة الخلافة إلى محاورتها ١١٢
تعقيباً علىٰ جون شيا ١١٨
تصوير الخلافة كوباء ١٢٠
خاتمة: في آفاق الحوار ١٢٣
مراجع الكتاب ١٢٩
صدر من كتب المؤلف ١٣٥
المحتويات ١٤١

Medeniyetler Arasi Diyalog Çöküşü

Tarihsel Ve Politick Okuma

Brof. Dr

EZZAT ASSAYED AHMAD

EBRU YAZCISI
ANKARA
2016

The Crumble of Interlocution's Claim

Between Civilizations

Political And Historical Reading

By Prof. Dr.

Ezzat Assayed Ahmad

EBRU YAZCISI
ANKARA
2016

هذا الكتاب

من أين نبدأ وأين ننتهي؟
لسنا أمام مشكلةٍ عويصةٍ أبداً.
نحن أمام مشكلةٍ بسيطةٍ واضحةٍ.
نحن أمام حقيقةٍ واقعيَّةٍ تؤكِّدها كلُّ الحوادث والأحداث التاريخيَّة، ولكن تكذبها الأوهام والأحلام.
لا شكَّ في أنَّ الحوار بَيْنَ الحضارات خيال يداعب عقول البشر جميعاً.
ولكنَّ هذا الأمل والطموح يتكسر على صخرة الواقع منذ آلاف السِّنين والمحاكمات المنطقية والواقعية تؤكِّد أنَّ هذا الطموح وهذا الأمل سيظل يتكسَّر على صخور الواقع بقسوة وسيظلُّ الإنسان ينشد هذا الأمل يساعده الوهم في عدم الاقتناع بحقيقة أن هذا الحوار متعذِّر واقعيًّا لا منطقيًّا

الدكتور عزت السيد أحمد

انهيار وهم الحوار بين الحضارات

قراءة سياسية تاريخية

The Crumble of Interlocution's Claim

Between Civilizations

Political And Historical Reading

By Prof. Dr.

Ezzat Assayed Ahmad

Medeniyetler Arasi Diyalog Çöküşü

Tarihsel Ve Politick Okuma

EBRU YAZCISI
ANKARA
2016